الفصل الأول

يتناول هذا الفصل بعض أوضاع البلاط المملوكي المتمثلة في تكوينه وتشكيله، بداية من تكوين الطبقة المملوكية التي تكونت من المماليك، وحياتهم وطريقة تدريبهم الخاصة وملابسهم وسلطتهم في الدولة، وكيفيه توليهم المناصب المختلفة، وعلي رأسهم السلطان المملوكي الذي كان يتولي السلطة بالقوة والاغتصاب، و عرض لبعض أنظمة البلاط وقواعد الحكم ووسائل الترفيه والتسلية والحياة الخاصة لتلك الطبقة، وكذلك العلاقات السياسية الخارجية بين الدولة المملوكية والدول الأخرى، ووسائل العقاب المتبعة في عقاب المجرمين، ومراسم البلاط المملوكي عند استقبال السفراء الأجانب.

- **المماليـك:**

قامت الدولة المملوكية على أكتاف المماليك، واستمدت اسمها منهم فكان المماليك أساس قيام الدولة المملوكية، فمنذ نهاية العصر الأيوبي اعتاد سلاطين بني أيوب علي شراء المماليك صغار السن واهتموا بهم من حيث تعليمهم وتدريبهم على فنون الحرب والقتال ثم كونوا منهم فرقا عسكرية قوية، وخاصة في عهد السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ هـ ٦٤٧هـ) (١٤٢٠ م – ١٢٤٩ م)، الذي أكثر من شرائهم حتى كان معظم جيشه منهم، وولاهم مناصب هامة، وأسكنهم في جزيرة الروضة، وكان للنصر الكبير الذي حققه المماليك في المنصورة على الصليبيين أثرا كبيرا في علو شأن المماليك وتكوين دولتهم[١٣٨].

كان يتم شراء المماليك من البلاد الأوربية المسيحية ويطلق عليهم الرقيق الأبيض من سلوفانيا وألبانيا والمغول وبلاد الجراكسة وإيطاليا وألمانيا[١٣٩]، أما

([١٣٨]) المقريزي، السلوك، ج١ ق ٢، ط١، ص ٣٣٩ -٣٤٠ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور ج ١، ص ٢٦٩ -٢٧٠.

([139]) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 55 , Ghistele ,(J.V.) ,Voyage en Egypte (1842 - 1483), trans by , Bauwens Preaux , Bruxelles ,

الرقيق السود فكانوا يجلبون من بلاد أفريقية وكانت أهم مدينتين تبيعان الرقيق الأسود في الحبشة هما "وشلو وهدية"[١٤٠]، وقد ذكر الرحالة فريسكو بالدي الذي زار مصر عام ٧٨٦ هـ /١٣٨٤ م أنه تقابل مع كبير التراجمة وهو أمير مملوكي من أصل بندقي أسلم وتزوج من سيدة فلورنسية أسلمت هي الأخرى وعاشا في مصر منذ فترة طويلة[١٤١]، أما كبير التراجمة الذي قابله الرحالة بيرو طافور عام ٨٣٩ هـ /١٤٣٥ م في القاهرة واستضافه في منزله لحين مقابلة السلطان المملوكي، فكان يهوديًا من قشتالة الإسبانية[١٤٢]، وأثناء رحلة فون هارف إلى القاهرة عام ١٤٩٦هـ / ٩٠٢ م تعرف على اثنين من المماليك أحدهما أصله من مدينة Basel، والآخر من مدينة Danzerg وكلاهما في ألمانيا[١٤٣].

كان يتم شرائهم من أكبر مراكز للتجار العبيد في البندقية وتركيا وهم صغار السن لصالح السلطان، وينقلون إلى موانئ دمياط والإسكندرية، وبعدها يصلون إلى القاهرة حيث يقوم السلطان باختيار أفضل الجنسيات، ويفرز العبيد فرزا دقيقا وذلك للتأكد من أنه لا يوجد بينهم من هو كبير في السن أو ضعيف الجسم؛ لأنهم سيكونون ضمن حاشيته وجيشه، وكان السلطان المملوكي يفضل اختيار الجنس المغولي والجركسي[١٤٤].

وقد حرص السلاطين المماليك على شراء العبيد حيث استطاع الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨ هـ ٦٧٦ هـ) (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) أن يحصل من الإمبراطور البيزنطي على ترخيص بمرور سفينة مصرية في مضيق البسفور لجلب الرقيق، وما

1975 , p. 36 , Wolff, How many miles to Babylon? , p. 17.

(١٤٠) العمري، شهاب الدين ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢ هـ، ص ٣٠ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٢٧ -٣٢٨ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٤٧.

(141) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 45.

(١٤٢) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٤.

(143) Harff ,The Pilgrimage of Arnold Von Harff ,p. 102.

(144) Dopp , Le Egypte , p. 15.

لبث أن أرسل سفينتين تحملهم من البحر الأسود إلى أسواق القاهرة والإسكندرية[١٤٥]، كما عقد السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ هـ - ٦٨٩ هـ) (١٢٧٩م – ١٢٩٠م) اتفاقية تجارية معه تسمح بمرور التجار المسلمين عبر بلاده لشراء الجواري والعبيد دون عائق[١٤٦]، لذلك فقد خصص السلاطين المماليك تاجراً للرقيق وأطلق عليه اسم الخواجة ويقصد به التاجر العجمي[١٤٧]، والذي كان له أهمية وقيمة لدى السلطان المملوكي حيث كان يستقبله استقبالا حافلا مثل كبار الشخصيات، ويبالغ في تكريمه ومنحه الهدايا والخلع الأموال وإعداد وتجهيز ما يلزمه من لحوم وعليق للدواب حتى ولو باع رأسًا واحداً من الرقيق [١٤٨] فكانوا يسيرون في شبه موكب ممتطين الخيول وسط قرع الطبول ونفير الأبواق ويطوفون في المدينة وسط صياح جنود السلطان وهم يرددون، قد أحضر هؤلاء السادة ما يقرب من ثلاثمائة نفس سيصبحون من أمتنا وسيقوم السلطان بشرائهم ويحيون ويموتون على دين محمد[١٤٩]، وكان المصدر الثاني للحصول على المماليك هم أسرى الحروب حيث يتم جمع الأسرى من كل جنس وبيعهم في أسواق الرقيق، بعد أن يأخذ السلطان ما يريده منهم [١٥٠].

كان المماليك يعيشون في ثكنات عسكرية في قلعة الجبل أطلق عليها الطباق، ويتكون من أربع طبقات به العديد من الغرف لسكنى العبيد الصغار [١٥١]، وكانت طباق المماليك بساحة الإيوان بالقلعة، واشتمل كل طابق على عدة مساكن تتسع لألف مملوك وقد أنشأ الظاهر بيبرس طبقتين بالقلعة تطلان على رحبة الجامع كما

([١٤٥]) سمير علي الخادم، الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، بيروت، ١٩٨٩ م، ص ٣٥٣.

([١٤٦]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٧٧ ؛ ابن عبد الظاهر، محي الدين ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١ م، ص ٢٠٥.

([١٤٧]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٦، ص ١٣.

([١٤٨]) المقريزي، السلوك، ج٢ ق١، ١٩٤١ م، ص ٢٤١ ؛ الخطط المقريزية، ج ١، ط١، نشر كلية الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٣٤٨، ٣٧١. ؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٣٦.

([149]) Dopp ,Le Egypte , p. 15.

([150])Adler , Jewish Travelers , p. 238.

([151]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 106.

أنشأ برج الزاوية المجاور لباب القلعة وأنشأ إلى جواره طباقا للمماليك أيضًا[١٥٢] ثم اهتم به الناصر محمد بن قلاوون وعمر حارة تختص بهم وجمع فيها جميع فئات المماليك السلطانية [١٥٣]، وكان يتم تقسيم المماليك إلى فصول يضم كل فصل خمسة وعشرين مملوكا، ولكل فصل غرف نوم خاصة بهم، وكانت الأرضيات مفروشة بالحصير بدلا من السجاد للنظافة، كما اهتم السلاطين المماليك بمستوى النظافة والرعاية والتغذية الخاصة بهم [١٥٤] حتى أن السلطان المنصور قلاوون كان يخرج في أغلب أوقاته ليرى بنفسه طعام المماليك ويأمر بعرضه عليه، ويتفقد اللحم ويختبر مذاقه ومدى جودته أو رداءته، فمتى رأي فيه عيبا عاقب المشرف [١٥٥] وكان كل مملوك يقيم في طباق جنسه ولكل مجموعة من الصبية معلم خاص بهم يعلمهم اللغة العربية والشريعة الإسلامية وحفظ القرآن الكريم والتدريب على الخط العربي [١٥٦].

وعندما كان المماليك يصلون إلى سن البلوغ، كانوا يتلقون دروسا في الفروسية وركوب الخيل وفنون القتال والحرب، وبعد أن يتم المماليك فترة التدريب العسكري، يقام لهم استعراض أمام السلطان، ويقوم بنفسه بامتحان واختبار هؤلاء المماليك، فيما تعلموه ودرسوه عن فنون القتال والحرب، وعند التأكد من قدرتهم ونجاحهم في

([١٥٢]) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، دار اكتب المصرية، ١٩٦٥ م، ص ١٩٠ -١٩١ ؛ - وهنا يجب أن نوضح أن طباق المماليك كانت حوالى ١٢ طبقة كل طبقة قدر حارة تشمل عدد من المساكن ويمكن أن يسكن في كل طبقة ألف مملوك.ابن شاهين، غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس، باريس، ١٨٩٤، ص ٢٧.

([١٥٣]) المقريزي، الخطط، ج ٣، ص ٣٤٦.

- وكانت الطباق متجاوزة وليست فوق بعضها وأحيانا على أرتفاع دورين على الاصطبلات عادة وقد قسم الأشرف خليل بن قلاوون المماليك كل مع بنى جنسه فأدى ذلك إلى العنصرية والتباغض بين المماليك ولذا قام السلطان الناصر محمد بتعمير حارة تجمع جميعا دون تصنيف الاجناس.

([154]) Ghistele , Voyage en Egypte , p. 31 ,See Also, Wolff , How Many Miles to Babylon ?, p. 17.

([١٥٥]) المقريزي، الخطط، ج ٣، ص ٣٤٦.

([١٥٦])نفس المصدر، ص ٣٤٧ ؛

Dopp,Le Egypt,p. 17, Harff,The Pilgrimage of Arnold Von Harff,p.106.

الاختبار، يحررهم من العبودية ويقدم لهم الإقطاعيات الزراعية كلاً حسب قدرته في احتفال كبير، حيث يطوف الموكب شوارع القاهرة وقد شاهد بيلوتي الكريتي Piloti de Crete احتفال التخرج في شهر أغسطس في القاهرة وقت فيضان النيل عام ٨٢٣ هـ /١٤٢٠ م، حيث كان الموكب يصل إلى ساحة القلعة الممتلئة بعدد كبير من المماليك، و يتبارزون بالرمح أمام السلطان فيجلس للاستماع والمشاهدة وحين يثبت كفاءة المملوك وقدرته القتالية يمنحه السلطان عشرين خيلا أو أكثر من ذلك وإقطاع إحدى القرى ونفقات الخيل، وكلما زاد المملوك في قدرته وشجاعته الحربية كان السلطان يزيد إقطاعه وعدد الجند والخيول[١٥٧].

كان كل مملوك يتقاضى مرتباً شهريا قدر بحوالي ٦ دنانير أشرفية[١٥٨] وأحيانًا يصل المرتب إلى ١٠ قطع ذهبية، بالإضافة إلى الطعام وعليق الخيول والملابس، التي سميت بالكسوة الصيفية والشتوية[١٥٩]، كما كانوا يحصلون عند اعتلاء السلطان الجديد على مبلغ يتراوح ما بين ١٠٠ – ٢٠٠ عملة ذهبية[١٦٠]، بالإضافة إلى نفقات خيوله وجنوده الذين يعدهم ويجهزهم عند الحرب فيحصل على ١٠٠ قطعة ذهبية، وعند ميلاد ولد ذكر للسلطان يوزع على المماليك ١٠٠ قطعة ذهبية أخرى[١٦١].

امتلك السلطان عددا كبيرا من المماليك يتراوح عددهم ما بين ١٠ إلى ٢٠ ألف مملوك منهم ١٠ ألاف يقيمون في القلعة، وهؤلاء هم المماليك السلطانية، ويتولون

([١٥٧]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٦

Dopp , Le Egypte , pp.17 -18 , Larrivaz, Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 55.

([١٥٨]) فارتيما، رحلات فارتيما، ص ٣٠ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٠ ؛

Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , note (1), p. 49.

- الدنانير الأشرفية:تنسب إلى الأشرفيات وأجودها التي تنسب إلى الأشرف برسباى وكانت تسمى البرسبيهية تمييزاً له عن الأشرفيات التي تنسب إلى قايتباى والغورى، أنظر، إبراهيم على طرخان، النظم الأقطاعية، ص ٥٢٦.

([159]) Ghistele , Voyage en Egypte , p. 34 , Harff , op.cit , p. 108.

([160]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 49.

([161]) Ghistele , op.cit , p. 34.

مناصب عليا في البلاط المملوكي ومنهم من يصل إلى أمير عشرة، أو أمير عشرين وآخر أمير خمسين وهكذا[١٦٢]، وهؤلاء يعلنون تحت القسم أنهم إخوة شجعان، تربطهم علاقة قوية معاً ويضعهم السلطان في مقدمة جيشه[١٦٣]، ويتولى الأمراء الكبار وظائف النيابة والولاية في المدن مثل حاكم بيت المقدس ووالي دمشق ووالي القاهرة[١٦٤]، وهؤلاء الأمراء المماليك كانوا يمتلكون عددا من الجند مثلوا جيوشًا صغيرة، ففي النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي والنصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي امتلك الأمير الغني ما بين ٣٠٠ و ٦٠٠ وأحيانًا ٨٠٠ مملوك، وفي القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي لم يمتلك الأمراء أكثر من ٢٠٠ أو ٣٠٠ مملوك، وكانوا يمثلون القسم من الجيش المملوكي ويعسكرون خارج القاهرة[١٦٥]، وكان القسم الثالث يتألف من أجناد الحلقة، وهم من أبناء المماليك والمواطنين الأصليين الأحرار الأقل شأنًا من بقية المماليك[١٦٦]، وبذلك يتكون الجيش المملوكي من ثلاثة أقسام، وهي المماليك السلطانية التي يشتريها السلطان لنفسه، والأمراء الكبار، أجناد الحلقة (أولاد الناس).

أما عن ملابس المماليك، فقد ارتدوا ملابس مميزة عن السكان، فكان الحرس

([١٦٢]) العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ٩٣ ؛

Potvin , Oeuvres de Ghillebert , pp. 118 -119.

([163]) Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p. 279.

([164]) Potvin , op.cit , pp. 118 -119.

([١٦٥]) السيد الباز العريني، الإقطاع الحربي بمصر، القاهرة، ١٩٥٦ م، ص ٧ ؛ آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطي، ترجمة عبد الهادي عبله، دمشق، ١٩٨٥، ص ٣٧١.

([١٦٦]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص٦٦.

- أولاد الناس: هم فرقة عسكرية في الجيش المملوكى وهم من عناصر مملوكية مختلفة كان أبوهم مملوكا وأصبح حرا فهم أحرار وأنضم معهم أيضا البدو والتركمان وبعض فئات المصريين واطلق عليهم أجناد الحلقة، أنظر، العمرى، مسالك الأبصار، ج٢، ص ٥١، أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص ٢٦، العرينى، الأقطاع الحربى، ص ٤.

المملوكي يرتدي عمامة حمراء [١٦٧] وعليها تطريزات رائعة بيضاء وحول الخصر قماش كتاني ويرتدون الدروع والسيوف والأسلحة في الحزام [١٦٨]، أما كبار المماليك فكانوا يرتدون ملابس كتانية بيضاء طويلة وفوقها ملابس أخرى من الكتان الرقيق المطرز والمزخرف برسوم رائعة[١٦٩] وفي القدم حذاء من الجلد أو الخشب، وعلى رأسه أيضا عمامة حمراء عالية ويتدلى من فوقها قماش صوفي وأحياناً تكون العمامة بيضاء اللون [١٧٠] ويصف لنا العمري ملابس الأمراء والجند وصفا جيداً فذكر أن زيهم الأقبية التترية والكلوتات فوقها ثم القباء الإسلامي فوقها وعليه يشد الحزام والسيف، ثم أن الأمراء والمقدمون وأعيان الجند يلبسون فوقه أقبية قصيرة الأكمام أقصر من القباء التحتاني بلا تفاوت كثيرة في قصر الكم والطول وكلوتات صغار غالبها من الصوف الأحمر وعليها عمائم صغار ومهاميز في الأخفاف[١٧١] وقد حدث تغيير على هذه الملابس التي تكونت من غطاء للرأس وأقبية وخف وغيرها، كان غطاء الرأس يتغير شكله ففي البداية كان الشربوش وهو على هيئة تاج مثلث الشكل

([167]) Adler, Jewish Travelers , p. 158.

([168]) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 31 ,See Also, Wolff, How Many Miles to Babylon ? p.74.

([169]) Dopp , Le Caire vu par les Voyageures , tome24 , pp. 125-126.

([170]) Harff,The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 121.

([١٧١]) العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ٩٩.

- الأقبية: مفردها قباء، وهي نوع من الملابس المملوكية، عبارة عن قفطان ضيق الأكمام، انظر، سعيد عاشور العصر المماليكي في مصر والشام، ط٢، دار النهضة، القاهرة، ١٩٧٦ م، ص ٤٦٠ ؛ محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠ م، ص ١٢١.

- الكلوتات: مفردها كلوتة، وهي غطاء للرأس عبارة عن طاقية صغيرة تلبس وحدها أو بعمامة وتسمي أيضا كلفه وكلفتاه وكلفته، انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٣٠، حاشية (١).

- مهاميز: حديدة تكون في مؤخرة الحذاء وكانت من الذهب أو الفضة الخالصة،ثم صنعت من الحديد المطلي بالفضة أو الذهب وكان في القاهرة سوق خاص لبيع المهاميز، انظر: المقريزي، الخطط، ج ٣، ص ١٥٨

بغير عمامة ثم الكلوتة وهي عبارة عن كيس من الحرير الأحمر أو الأصفر بغير عمامة أيضا، ثم استجد الناصر محمد بن قلاوون العمائم المصرية الصغار التي عرفت بالناصرية ثم عادوا مرة أخرى إلى لبس الكلوتات، أما ملابس الأمراء والجند فكانوا يرتدون فوق القميص والسراويل الأقبية التترية وفوقها الكلوتات ثم يرتدون الأقبية الإسلامية ويشدون الحزام ويعلق فيه السيف من جهة اليسار وكان أمراء الجيش يرتدون فوق هذه الأقبية نوعا آخر من الأقبية المفتوحة من الأمام وقصيرة الأكمام أي أقصر من القباء التحتاني بلا تفاوت كبير في قصر الكم وطوله مع سعة الكم القصير وضيق الأكمام الطويلة [١٧٢].

نظراً للتربية الصارمة والاهتمام بالمماليك فإنهم مثلوا الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، وأصبح لهم سلطات قوية في البلاد ولكنهم، استغلوا تلك السلطة في الظلم والاستبداد والطغيان على الناس، وخاصة في العصر المملوكي الثاني، وبعد خروجهم من القلعة وانخراطهم في المدن وسوء الأحوال الاقتصادية وعدم قدرة السلطان المملوكي علي دفع مرتباتهم الشهرية، شاهد الرحالة الأوربيون مدى قسوة واستبداد هؤلاء المماليك مع الناس، فذكر الرحالة جان تينو JeanThenaud والذي زار القاهرة عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م أن في القاهرة تجارًا أثرياء جدًا ويمتلكون ثروات هائلة، ولكنهم لا يجرءون على إظهار ثرواتهم وذلك خوفاً من بطش واستبداد السلطات وطبقات الأمراء ضدهم [١٧٣]، وهؤلاء التجار كانوا يتاجرون في السلع الثمينة كالمجوهرات والرقيق والسلع الشرقية باهظة الثمن، وارتبط معظمهم برجال الدولة وتقرب إليهم السلاطين المماليك أيضا للاقتراض منهم، وأثقلوهم بالضرائب وصادروهم، مما أقلق كثيرا منهم فخافوا على أنفسهم، لدرجة أن بعضهم قد تمنى على نفسه الموت حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسائر والظلم [١٧٤]، وقد

([١٧٢]) أحمد عبد الرازق، الجيش المصري في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٢٧ - ١٣٣

([173]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 48.

([١٧٤]) أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، في العصور الوسطي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠ م، ج ٢، ٢٥٢.

أثبتت الأحداث أنه كان هناك مائتا تاجر في عهد الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ – ٧٤١ هـ) (١٣١٠ – ١٣٤١ م)، والمؤيد شيخ (٨١٥ – ٨٢٤ هـ) (١٤١٢ -١٤٢١م)، يتاجرون في السلع الشرقية ولكن بعد وفاة المؤيد شيخ تدهورت أحوالهم وكادوا يختفوا من السوق بسبب سياسة المصادرات والظلم ولم يعد يظهر في السوق اسم تاجر الكارم بل اسم تاجر السلطان فقط، وذلك لهجرة البعض ولتقاعس البعض الآخر عن العمل والاستسلام لمصيرهم [١٧٥].

شاهد الرحالة بوم جارتن Baumgarten يوم ٢١ جمادي الآخر ٩١٣ هـ / ٢٩ سبتمبر ١٥٠٧ م في أحد شوارع القاهرة، أحد المصريين يبكي ويصرخ ويضرب على رأسه وصدره، وقد اندهش مما رآه وعندما سأل عن سبب ذلك، قيل إنه اشترى منزلا بمبلغ كبير من المال وعندما انتهي من سداد المبلغ قام أحد المماليك بالاستيلاء عليه بالقوة والظلم، لأنهم أصحاب السلطة ويحق لهم فعل ما يريدون ويعاقبون أي شخص بأي طريقة كانت وليس له حق الاعتراض أو الشكوى، كما كان لا يسمح للمصريين بركوب الخيل ولا حمل السلاح في المدينة ويجبرون على المعاملة كعبيد ولا بد عليهم من تقديم فروض الطاعة والولاء وعندما يسمح الأمير لأي شخص بتقبيل يده كأنه أعطاه شرفًا كبيرًا وفضلًا منفردا[١٧٦] وقد قاسي الفلاحون من جراء النظام الإقطاعي والتعسف في أواخر العصر المملوكي حيث ذكر بوم جارتن أن التعسف هؤلاء المماليك وصل حد الاستيلاء على الحيوانات التي كان يمتلكها هؤلاء الفلاحون [١٧٧].

وبلغت إساءات المماليك ذروتها عندما كانوا ينزلون المدن ويرون سيدة جميلة في الشارع أو في منزل من المنازل، أن فيدخلوا الدار عنوة ويعتدون عليها حتى لو كان أهلها في المنزل، وقد حاول بعض السلاطين الحد من تلك الاعتداءات، ولكن لم

([١٧٥]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٦ ؛ عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية، ترجمة فيليب صابر سيف، القاهرة، ١٩٩٠ م، ص ١٨٨.

([176]) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p. 454.

([177]) Ibid , pp. 460 -461.

يفلحوا في ذلك واستمر المماليك يدخلون المنازل في وضح النهار[١٧٨]، كما كانوا يتربصون بالفتيات في الأماكن المخصصة كالحانات الكبيرة فإذا مرت الفتاة أمام الباب أمسكها المملوك وسحبها إلى الداخل ومهما حاولت المقاومة فلا تستطيع الإفلات منه [١٧٩] وهؤلاء المماليك كانوا يركبون الخيول فقط، ويحملون في أيديهم العصا والسيوف وعندما يقترب منهم أحد من السكان يضربونه بقوة، ولذلك كان الناس في الشارع يبتعدون عنهم ويفسحوا لهم الطريق وقد رأى كلا من هارف Harff، وفارتيما Varthema أحد المماليك وهو يضرب الناس في الشارع وكان عددهم أكثر من مائة شخص ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ولم يكن يسمح لأي شخص أن يحمل عصًا أو سكينًا[١٨٠] وهذا الوضع كان سائداً في العصر المملوكى حيث لم يسمح للسكان بحمل السلاح أو عصاة في الشارع أو التعرض للمماليك لأنهم هم الطبقة الحاكمة في البلاد كما عاش المماليك حياة منفصلة عن الشعب.

- السلطان:

كان السلطان رأس القوة المملوكية، وكان توليه السلطة في الغالب نتيجة اختيار الأمراء له وليس نتيجة المبدأ الوراثي، حيث لم يكن ذلك المبدأ مطبقا في العصر المملوكي بخلاف ما كان يحدث في العصر الأيوبي، وإذا كان المنصور قلاوون (٦٧٨ – ٦٨٩ هـ) (١٢٧٩ -١٢٩٠ م) قد حاول توليه أبنائه من بعده، إلا أن المماليك الجراكسة لم يأخذوا بهذا المبدأ، ولم يكن للسلطان الحق في توليه ابنه من بعده، فقد كان هؤلاء المماليك يعيشون في عزلة تامة عن المجتمع وبعضهم لم يتعلموا اللغة العربية على الإطلاق بل كانت اللغة التركية هي السائدة في البلاط المملوكي، ورغم نزولهم من الثكنات العسكرية بالقلعة إلى شوارع القاهرة إلا أنهم ظلوا في عزلتهم الاجتماعية، وتولوا مناصب عليا وأصبحوا هم أصحاب السلطة السياسية والقوة

---

(١٧٨) سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٣٣٦ ؛ Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 56.

(١٧٩) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٣٢ ؛ فارتيما، رحلات فارتيما، ص ٣٠.

(١٨٠) فارتيما، رحلات فارتيما، ص ٣١ ؛

Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff,pp.121 – 122.

العسكرية، كما كانت انتماءات المماليك شخصية فنسمع عن المماليك الصالحية نسبة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، والمماليك الظاهرية نسبة إلى الظاهر بيبرس، والمماليك المنصورية نسبة إلى المنصور قلاوون وهكذا، وكانت تلك الرابطة سببا في حدوث تنافس وانشقاقات مستمرة بين الطوائف المملوكية مما أحدث صراعات وخلافات قوية أدت إلى تحويل المدن المصرية والشامية إلى ميادين للمعارك والحروب الداخلية واشتد التنافس القائم على القوة والدم و تبدأ سلسلة الخلافات والصراعات عندما يتوفى السلطان، فيسارع كبار الأمراء المماليك بجمع جنودهم وعسكرهم الذين مثلوا جيشا مسلحا مصغرا ويبدأ الصراع للوصول إلى السلطة بالمكر والخداع والاغتيالات والنفي، وهكذا فقد كانت القوة العسكرية وزيادة عدد المماليك لدي الأمير المملوكي مساعدا فعالا وقويا لتوليه السلطة وخلال فترة ٢٦٤ عاماً تولي ٤٥ سلطانا عن طريق الصراع والاغتيالات والخلافات المستمرة [١٨١].

وهنا يذكر الرحالة السير جون منديفيل Sir Johan mandievel الذي عاصر فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ – ٧٤١ هـ) (١٣١٠ – ١٣٤١ م) ما حدث حتى تولى الناصر محمد السلطة للمرة الثالثة، حيث استولي السلطان المملوكي المنصور قلاوون على السلطة باستخدام القوة والعنف، ثم ابنه الأشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) (١٢٩٠ – ١٢٩٣ م) الذي قتلوه بالسم، وتولي أخوه الناصر محمد، ثم من بعده الأمير كتبغا (٦٩٤ – ٦٩٦ هـ) (١٢٩٤ – ١٢٦٩ م)، والذي سجن الناصر محمد في قلعة الجبل، ثم قام الأمراء المماليك بخلع كتبغا، وعينوا بدلًا منه الأمير لاجين (٦٩٦ – ٦٩٨ هـ) (١٢٩٧ – ١٢٩٩ م) الذي قتله أحد أمرائه، ثم حدث صراع طويل على السلطة انتهي بتولي الناصر محمد للمرة الثالثة ولفترة طويلة (٧٠٩ – ٧٤١ هـ) (١٣١٠ – ١٣٤١ م)[١٨٢].

([181]) Wright, Early Travelers ,pp. 117– 118,Casola , Casola Pilgrimage to Jerusalem , p. 279 , See Also ,Wolff , How Many Miles to Babylon ?, p. 24.

([182]) Wright , Early Travelers , pp. 145-146.

- السلطان العادل كتبغا: هو كتبغا المغولي المنصوري تم أسره من عسكر هولاكو عام ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م، وعظم شأنه في دولة المنصور قلاوون وأولاده، ثم ولي النيابة في أيام الناصر محمد بن

يرجع السبب في ذلك إلى تعصب الطائفة المملوكية وارتباطها بأستاذها فقد استطاع المنصور قلاوون إنشاء فرقة عسكرية قوية من الجراكسة وأسكنهم في أبراج القلعة ولذا سموا بالمماليك البرجية ووصل عددهم إلى ٣٠٠٠ مملوك وعزلهم عن بقية المماليك وأغدق عليهم بعطفه وأمواله وإقطاعيات كثيرة [١٨٣] سار أبناء المنصور على سياسة أبيهم في الاهتمام بالمماليك الجراكسة البرجية، مما أدى إلى الكراهية ومشاعر الحسد بين البرجية والطوائف الأخرى وظهر ذلك واضحا عندما دبر الأمير بيدرا مؤامرة لقتل الأشرف خليل بن المنصور قلاوون فقامت المماليك المنصورية بقتل الأمير بيدرا انتقاماً لابن أستاذهم [١٨٤]، واختار المماليك الناصر

قلاوون واستقل بالسلطنة ولقب بالعادل عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م، ولكن الأمراء وثبوا عليه وأسروه وسجنوه بقلعة صرخد، ثم لما عاد الناصر محمد إلي السلطنة للمرة الثالثة عينه نائبا علي حماه ومات ودفن فيها يوم عيد الأضحى سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م، انظر: الشوكاني، البدر الطالع ج ١، ص ٣٩٢.

- السلطان لاجين: هو الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري، وكان أصله من مماليك المنصور قلاوون، واشترك مع الأمير بيدرا في قتل الأشرف خليل بن قلاوون، ولما تولي الناصر محمد اختفي لاجين حتى شفع فيه كتبغا فانعم عليه بتقدمة ألف، فلما تسلطن كتبغا جعله نائب السلطنة، وعندما وقع خلاف بين الاثنين خلع كتبغا وتولي السلطنة، وفي عهده أمر بمسح شامل للأراضي الزراعية " الروك الحسامي " ولكنة ظلم الجند والأمراء عند التوزيع فاتفق المماليك الأشرفية مع المماليك البرجية علي قتله عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م، انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٣٩٤ ــ ٣٩٩.

([١٨٣]) المقريزي، السلوك، ج١ ق٣، ص ٧٥٥ -٧٥٦.

([١٨٤])بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص٩٤ -٩٧ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٣٧٤ ــ ٣٧٥ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٦ -١٩.

- الأمير بيدرا: كان أحد مماليك المنصور قلاوون، ثم صار من مماليك الأشرف خليل الذي كان له وزير يدعي شمس الدين بن محمد السلعوس، وزادت مكانته وعندما دخل الإسكندرية وجد غلمان الأمير بيدرا النائب قد استولوا علي البهار، فحصلت مشاجرة بين بيدرا والسلعوس، الذي وشي به عند الأشرف خليل وأوغر صدره عليه فقرر بيدرا التخلص من السلطان قبل أن يقتله مثلما فعل مع بعض الأمراء الآخرين، ونفذ مؤامرة أثناء رحلة الصيد، ولكن المماليك تبعوه وأحضروه بين أيدي الأمير كتبغا، الذي قتله وقتل معه المتآمرين، انظر ؛ بيبرس المنصوري، ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري الدوادار، مختار الأخبار، تحقيق، عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية،

محمد بن قلاوون سلطاناً على البلاد في سلطنته الأولي (٦٩٣ هـ – ١٢٩٣ م) وكان صغيرا في السن، وكان كل من الأمير كتبغا وسنجر الشجاعي يحكمان البلاد باسم الطفل الصغير فاشتد الصراع بينهما للوصول للسلطة والتخلص من الآخر ومن الطفل الصغير، واستطاع الأمير سنجر الشجاعي هزيمة كتبغا وأنصاره بمساعدة المماليك البرجية الجراكسة[١٨٥]، ثم تخلى المماليك الجراكسة عنه فيما بعد مما أثر تأثيرا سلبيا في الصراع بينه وبين الأمير كتبغا الذي استطاع أن يشتت شمل الجراكسة ويفرقهم وأنزلهم في ثكنات بالقلعة وفي أحياء القاهرة خوفا من تجمعهم مرة أخرى [١٨٦].

ثم ساءت أحوال المماليك الجراكسة في عهد كتبغا (٦٩٤ – ٦٩٦ هـ) (١٢٩٤ – ١٢٦٩ م)، وفي عهد لاجين(٦٩٦ – ٦٩٨ هـ) (١٢٩٧ – ١٢٩٩ م) اللذان اغتصبا السلطة من الناصر محمد، ثم نجح الجراكسة في الانتقام وذلك بقتل السلطان لاجين [١٨٧]، وعاد الناصر محمد بن قلاوون للسلطة للمرة الثانية (٦٩٨ – ٧٠٨ هـ) (١٢٩٩ – ١٣٠٨ م)، وبعدها بدأ نفوذ الجراكسة السياسي يزداد بزعامة أميرهم بيبرس الجاشنكير وهنا بدأ الصراع مرة أخرى عندما فكر بيبرس وزملاؤه في

ط١، ١٩٩٣ م، ص ٩٣ -٩٧ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٣٧٣ – ٣٧٥.

([١٨٥]) المقريزي، السلوك ك، ج١ ق٣، ص ٧٩٨ -٨٠٠.

- الأمير سنجر الشجاعي: هو الأمير سنجر بن عبد الله الجاولي أبو سعيد، ولد في آمد عام ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م، ثم صار لأمير يدعي جاول في سلطنة الظاهر بيبرس، ثم خدم المنصور قلاوون، ثم أخرج إلي الكرك، ثم استخدمه كتبغا، و تولي نيابة الشوبك، ثم عمل إستادار صحبة الناصر محمد، الذي أرسله إلي دمشق لعمل مسح شامل للأراضي " الروك الناصري "، فاختار لمماليكه أفضل الإقطاعات، فلم يعجب الأمير تنكز نائب الشام وحرض الناصر علي حبسه، ثم أفرج عنه وتولي نيابة غزة، وتوفي عام ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م، انظر، العسقلاني، شهاب الدين احمد بن علي بن محمد، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ٢، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧ م، ص ١٠٠ - ١٠١

([١٨٦]) المقريزي، السلوك، ج١ ق٣، ص ٨٠٤ -٨٠٦.

([١٨٧]) بيبرس المنصوري الدوادار، مختار الأخبار، ص ١٠١ – ١١٠ ؛ أبن أيبك الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق، أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١ م، ص ٣٧٠ – ٣٨٠.

مصالحهم الخاصة على حساب السلطان، وعلى الجانب الأخر تزعم المماليك البحرية الأمير سلار ومازال المماليك البحرية يتمتعون بقدر وافر من النفوذ والقوة فكان الصراع بين الأمير سلار وركن الدين بيبرس الجاشنكير من ناحية والسلطان الناصر محمد من ناحية أخرى وعندما لم يستطيع التخلص منهم تنازل عن الحكم وهرب إلى حصن الكرك [١٨٨] ثم استطاع العودة للمرة الثالثة إلى السلطة وبعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون تولى السلطة عدد من أبنائه وأحفاده الصغار في السن وهنا زاد نفوذ الجراكسة وظهر الأمير برقوق، الذي أسره القراصنة وهو صغير واشتراه الأمير يلبغا الخاصكي، وتدرب في المدرسة العسكرية، وتعلم فنون الحرب والقتال، وعندما أصبح فارسا قويا أعتقه سيده وترقي في مناصب عديدة [١٨٩]، واستطاع بمساعدة

([١٨٨]) ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق، هانس روبرت، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٥٥ -١٧٦ ؛ ابن حبيب، الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبيه في أخبار المنصور وبنيه، ج ١، تحقيق محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٦، ص ٢٨١- ٢٨٣.

- الأمير بيبرس الجاشنكير: هو بيبرس العثماني الجاشنكير الملك المظفر كان من مماليك المنصور قلاوون وترقي أمير طبلخانة وهو من الأمراء الذين ناصروا الناصر محمد ثم انقلب عليه وولي نفسه سلطانا ولكن الناصر استطاع العودة للسلطة وعفا عنه وأقطعه صهيون وعندما وصل غزة وجد نائب الشام في انتظاره فقبض عليه وأعاده إلي القاهرة، انظر: الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص ١١٥ ؛ "الجاشنكير": تعني: الأمير الذي يقوم بتذوق الطعام والشراب قيل السلطان خوفا من أن يدس فيه السم، ولقب أحيانا بالإستدار، وهي وظيفة من وظائف أرباب السيوف ويتولى صاحبها شئون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب والحاشية والغلمان، انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٥، ٤٦٠ ؛ ٤٥٧.

- الأمير سلار: هو الأمير سلار التتري المنصوري، كان من مماليك الصالح علي بن قلاوون، ثم من خواص الأشرف خليل، ثم نائب عن الناصر محمد، ثم أصبح هو وبيبرس الجاشنكير في النيابة، وزاد دخله وإقطاعه، ثم قبض عليه الناصر محمد في سلطنته الثالثة وسجنه حتى مات، انظر: الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص ١٨٧ ؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص ١٠٦ -١٠٧.

([١٨٩]) المقريزي، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٤٧٦- ٤٧٧ ؛

Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 45 , See Also , Wolff, How Many Miles to Babylon ?p.27.

- الأمير يلبغا الخاصكي: هو الأمير يلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري تولى إمرة تقدمة ألف في عهد الناصر محمد، ثم استقر أمير مجلس، وتولي الرياسة ولقب نظام الملك في عهد الأشرف شعبان

زميله الأمير بركة أن يتخلصا من السلطان الجالس على العرش واقتسما السلطة معاً، ولكن حدة التنافس والصراع ظلت موجودة بين المماليك وباستخدام المكر والدهاء من الأمير برقوق استطاع أن يحرض المصريين ضد الأمير بركة وثاروا ضده، وهنا حدث الصراع المرتقب بين بركة وبرقوق، وجهز الأمير بركة قواته من الأتراك وجهز برقوق قواته من الجراكسة، وانتهى الصراع بفوز برقوق والقبض على بركة ووضعه في السجن ثم قتله[١٩٠]، وقبض على السلطان حاجي وتزوج زوجته وأقنع الطفل الصغير بالتنازل عن العرش وتولى السلطة في ١٦ رمضان ٧٨٤ هـ / ٢٦ نوفمبر ١٣٨٢ م ورغم ذلك كان له معارضون وظل في الحكم سبع سنوات وفي عام ٧٩٢ هـ /١٣٨٩م تنازل عن العرش واختفي، ثم عاد مرة أخرى حتى مات عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م [١٩١].

تولى الحكم من بعده ابنه السلطان الناصر فرج بن برقوق (٨٠١ – ٨٠٨ هـ) (١٣٩٩ – ١٤٠٥ م) والذي عاصره التاجر إيمانويل بيلوتي الكريتي Piloti de crete وشاهد ما حدث أثناء فترة حكمه، حيث تمرد ضده اثنان من مماليكه في دمشق وحلب وقام بحشد قواته في القاهرة استعدادًا لمحاربة المتمردين، وكان جيشه حوالي ٢٠٠٠ مقاتل على رأسه اثنان من مماليكه المقربين إليه ولكنهم خانوه وانضموا إلى المتمردين وتراجعوا للخلف وانهزم عدد من قوات السلطان في دمشق واضطر للهرب مع ٢٠٠ من الخيالة، واحتمى بقصره في دمشق، أما المتمردون فقد حددوا

وصار صاحب الحل والعقد وأكثر من المماليك الجلبان وفي زمانه كثر فساد العربان والتركمان، ثم اجتمع عليه مماليكه لقتله في البحيرة مع السلطان، ولكنه هرب ووصل ساحل القاهرة وضم إليه المراكب، ومنع العسكر من المرور، فلما جاء السلطان ركب هو و جميع العسكر في الشواني التي عمرها يلبغا لغزو الفرنجة فحاربهم يلبغا وأقام في جزيرة أرواد وعين أنوك أخو السلطان الأشرف شعبان سلطانا، ثم قبض عليه العسكر السلطاني وقتلوه بأمر من السلطان، انظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص ٢٧٠ -٢٧١.

(١٩٠) المقريزي، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٤٧٣ – ٤٧٤ ؛ Frescobaldi ,op.cit , pp. 174-175.

(191) Wolff,op.cit, p. 28.

إقامته في القصر ولكنهم خافوا من انتقامه منهم لذا اتبعوا أسلوب المكر والخديعة واتجهوا إلى الخليفة العباسي المستعين بالله (٨١٥ هـ / ١٤١٢ م)، وأظهروا له الولاء والطاعة وأوغروا صدره على السلطان الناصر فرج بن برقوق ليقوم بعزله وقتله وتولية غيره، ونتيجة لتلك الوشايات صرح الخليفة بعزل السلطان وقتله وحل الخليفة محل السلطان مؤقتا لحين تولية سلطان غيره [١٩٢].

كان الأميران اللذان تحالفا ضد السلطان فرج هما الأمير نوروز نائب الشام والأمير المؤيد شيخ نائب طرابلس وأعلنا الثورة عليه وزحفا بجيشهما إلى القاهرة عام ٨١١ هـ - ١٤٠٨ م وعندما خرج السلطان فرج للشام لقمع الثورة حلت به الهزيمة قرب دمشق وقبض عليه وقتل، في حين أدى التنافس بين نوروز وشيخ إلى اختيار الخليفة المستعين بالله سلطاناً مؤقتًا [١٩٣].

أما الرحالة جسيتل Ghistele الذي زار مصر عام ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م، وكان معاصراً للسلطان الأشرف قايتباي (٨٧٣-٩٠١هـ) (١٤٦٨- ١٤٩٥م)، وعلم ظروف توليه السلطة، فعندما تولى قايتباي السلطة كانت الظروف صعبة وكانت الفترة فترة انحلال وتدهور سياسي داخلي، حيث تولي السلطان تمربغا عام ٨٧٢ هـ/١٤٦٧ م لمدة شهرين فقط وتم عزله علي يد الأمير خير بك عن طريق الصراع والخديعة والدهاء والذي لقب نفسه بالظاهر واختاره المماليك في اجتماع عاجل بالقلعة أثناء الليل، ولكن ذلك لم يرض الأتابك قايتباي فدخل القلعة ومعه عدد من الأمراء بلغ عددهم حوالي ٤٠ أو ٥٠ مملوكاً، حيث قاموا بإلقاء القبض على الأمير خير بك رافضين توليه السلطنة وأطلق عليه سلطان ليلة، وأعلنوا تولية قايتباي سلطاناً على البلاد عام ٨٧٣ هـ - ١٤٦٨ م) ولم يجرؤ أحد وقتها على الاعتراض على حكم قايتباي على السلطان المخلوع خير بك بالنفي إلى الإسكندرية والإقامة فيها حتى

([192]) Dopp , Le Egypte , pp. 12-14.

([١٩٣]) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١، ص ٢٠٥-٢١٦ ؛ ابن الصيرفي، علي بن داود بن إبراهيم الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٢، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٠٢ -٢٠٥ ؛ ٢١٢ -٢١٤ ؛ ٣٠٥-٣١٦.

مماته[١٩٤]، وعندما تولي الناصر محمد بن قايتباي (٩٠١- ٩٠٤هـ / ١٤٩٦-١٤٩٨م) السلطة اختاره المماليك بعد وفاة والده، ولكن هناك بعض المماليك الذين اعترضوا على تولية ذلك الشاب، فجمعوا الجنود والعسكر وهاجموا القلعة لمدة ثلاثة أيام ومعهم ٣٠٠٠ مملوك وذلك لإجبار الشاب على الخروج من القلعة والتنازل عن الحكم، وكان يتزعم المماليك المتمردين الأمير قانصوة خمسمائة والذي تولي السلطة ثلاثة أيام فقط، ودارت رحى الصراع بين السلطان محمد بن قايتباي وقانصوة خمسمائة، حتى اضطر السلطان محمد إلى الهرب، وفي اليوم التالي قام قانصوة بقتل كل أتباع السلطان محمد، وتابع الطرفان الصراع مرة أخرى واستطاع السلطان محمد بن قايتباي القضاء على قانصوة خمسمائة ومعه ٥٠ من الجنود وعاد السلطان محمد بن قايتباي إلى القاهرة [١٩٥].

استمر ذلك الوضع المضطرب وظلت الخديعة وسفك الدماء والانقلابات هي الطريقة المثلى للوصول إلى العرش وتولية السلطنة حتى نهاية العصر المملوكي، وأحيانا كان السلطان يضطر للبقاء في القلعة لفترة طويلة ولا يخرج منها خوفًا من هجوم المماليك عليه عند خروجه. فقد ذكر الرحالة تينو الذي زار مصر عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م أن السلطان الغوري (٩٠٦ – ٩٢٢ هـ) (١٥٠١ – ١٥١٦ م)، لم يخرج من قصره منذ فترة طويلة إلا في حالات نادرة، والسبب في ذلك هو خوفه من أن يدخل أحد قصره ويستولى على السلطة،كما سبق و فعلوا مع بعض السلاطين المماليك السابقين، فمنهم واحد قد تم إيداعه في السجن بالإسكندرية مكبلًا بالقيود والسلاسل الحديدية وهو (السلطان جانبلاط ٩٠٥ – ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ -١٥٠١ م)، والآخر تم

([١٩٤]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣،ص ٣ - ٤ ؛ Ghistele ,Le Voyage en Egypte, pp. 27- 29. – الأتابك: الأتابك أو الأطابك معناها الوالد أو الأمير وهو مقدم العسكر والقائد الأعلى للجيش، انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٨.

([١٩٥]) ابن إياس بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٤٢ -٣٤٥ ؛ Harff,The Pilgrimage of Arnold Von Harff, pp.103-105

إعدامه والتخلص منه وهو (السلطان العادل طومان باي (٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م)[١٩٦]، وكل هؤلاء السلاطين المماليك من حكم قايتباي إلى عهد السلطان قنصوة الغوري قد حكموا فترات قصيرة مما يدل على مدى الفوضى السياسية وعدم الاستقرار الذي ساد البلاد في ذلك العصر، وليس أدل على ذلك من أن معظم السلاطين المماليك الذين تولوا الحكم في عصر الجراكسة انتهت حياتهم بالقتل أو السجن، والنفي مما جعل كبار الأمراء المماليك لا يرغبون في السلطنة القائمة على سفك الدماء والخيانة فعندما قتل العادل طومان باي عرض المماليك على قنصوة الغوري السلطنة ولكنه رفض في البداية خوفاً من تمرد المماليك عليه وقتله، ولكنهم سحبوه وأجلسوه بالقوة علي العرش، ثم اضطر في النهاية للقبول واشترط عليهم ألا يقتلوه وأن يعفوه بالمعروف إذا أرادوا عزله حيث قال لهم: أقبل ذلك بشرط ألا تقتلوني بل إذا أردتم خلعي وافقتكم[١٩٧].

أما بالنسبة إلى هيئة السلطان في مجلسه وملابسه فقد دونها الرحالة الأوربيون واندهشوا مما شاهدوه، فقد كان السلطان يجلس في إيوانات (قاعات فسيحة) بالقلعة أو في الأحواش خارج القصر، حيث كان في القلعة إيوانات عديدة معدة لاستقبال الضيوف والزوار وعقد جلسات السلطنة، وكانت تلك القاعات فخمة وعظيمة البناء والمعمار، فالحوائط مغطاة بالرخام والفصوص الذهبية ومزخرفة برسوم مذهبة أو بلون زرقة السماء، والأرضية مغطاة بالرخام الأبيض الملون، والسقف مذهب ومغطى بزخارف ورسوم رائعة الجمال، و كانت القاعة مليئة بعدد من الأعمدة الرخامية ناصعة البياض والحمراء، كما غطت الأرضية بالفرش والبسط والسجاد[١٩٨] كما كان داخل القاعة ذاتها نافورة مربعة الشكل غير عميقة تسبح فيها

([١٩٦]) ابن طولون، شمس الدين محمد بن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ج١، تحقيق محمد مصطفي، القاهرة، ١٩٦٢ م، ص ٢٣٠ -٢٤١ ؛

Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.50.

([١٩٧]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٤.

([١٩٨]) الوزان، الحسن بن محمد الوزان الزياتي (جان ليون الأفريقي)، وصف أفريقيا، ترجمة عبد

الأسماك [١٩٩] كانت القاعة تطل على حديقة رائعة من خلال نوافذ ذهبية أو حديدية، والحديقة عبارة عن بستان بديع المنظر به شتى أنواع الفاكهة والنباتات والزهور والعديد من النافورات [٢٠٠].

كان السلطان يجلس في الهواء الطلق ولاسيما وقت الصيف الحار، فتقام في أحد الأماكن في القلعة خيمة ضخمة وكبيرة وسط الميدان الفسيح، وفيها يجلس السلطان لتناول الطعام أو لاستقبال الوافدين، وعلى مقربة منه خيمة أخرى أكثر فخامة يستقبل فيها الشخصيات الهامة[٢٠١]، وكان يوجد في صدر المجلس تخت السلطنة وهو عبارة عن منبر مرتفع من الرخام والعاج والأبنوس[٢٠٢]، وأحيانًا يسميه الأجانب المصطبة، وفي مناسبات أخرى كان السلطان يجلس على كرسي خشبي مغطى بالحرير[٢٠٣] جرت العادة أن ينظر السلطان في الشكاوى والمظالم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع في الإيوان المعروف بدار العدل بالقلعة[٢٠٤]، وكان السلطان يجلس وحوله الأمراء والمماليك وعدد من الفرسان مسلحين بالأسلحة من السيوف والدروع والحراب[٢٠٥]، ويقف بجانبه أيضًا عدد من المماليك كان أحدهم يمسك سيفًا والآخر إبريقًا والثالث يحمل على كتفه الأيمن قضيبًا طويلًا من الذهب[٢٠٦].

الرحمن حميدة، السعودية، ١٣٩٩هـ، ص ٥٩٠ ؛ Dopp , Le Caire , tome 24 , pp. 127-129 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.188

([199]) Ghistele , Le Voyage en Egypte , pp. 24.

([٢٠٠]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٣٤٤-٣٤٦

([٢٠١]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٧.

([٢٠٢]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٣٣٥ ؛ Dopp , Le Caire , pp. 126 -127.

([203]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.189.

([٢٠٤]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٣٣٩ ؛ ابن كنان، محمد بن عيس بن كنان، حدائق الياسمين، تحقيق عباس الصباغ، بيروت، ١٩٩١م، ص ٨٠ ؛

Adler, Jewish Travelers , p. 170 , Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff,p. 107.

([٢٠٥]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٦ .Wright , Early travelers , p. 147

([206]) , Dopp , Le Caire , pp. 126-127 .Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.189

كانت ملابس السلطان مثل ملابس المماليك عبارة عن رداء من الكتان الأبيض وعمامة بيضاء مزينة [٢٠٧]، وأحيانا كان يرتدي الثوب البعلبكي الأبيض، وعليه عباءة من المخمل الشديد الاخضرار، وعلي رأسه عمامة ذات قرون [٢٠٨]، وقد تعود السلطان على تغيير ملابسه ثلاث مرات في اليوم، ويلقي بها في غرفة خاصة ولا يرتديها مرة أخرى ليقدمها فيما بعد إلى أقاربه وأمرائه المقربين إليه والولاة المخلصين له في مناسبات عديدة [٢٠٩].

أما عن وسائل الترفية والتسلية للطبقة الحاكمة، فكان الصيد رياضة المماليك المفضلة ووسيلة من وسائل الترفية والتسلية التي أحبوها وبالغوا في الاهتمام بها، ومارسوها على نطاق واسع، فقد كانوا منذ صغرهم يتدربون على فنون القتال وأساليب الصيد، ويرون أنه أرقي وأسمى الأعمال التي يقوم بها المملوك سواء كان سلطانا أو أميرا،لذلك كانوا يحرصون على تعلم أساليب الصيد وكل ما يتعلق به. وكانت رحلات الصيد تسمي باسم سرحات الصيد، والتي كان موعدها عادة أيام الربيع، حيث يسرح السلطان عدة مرات وجميع الأعيان بخدمته بالموكب الكامل إلى مواقع مخصوصة [٢١٠] وأهم تلك المواقع هي منطقة سرياقوس والتي تبعد حوالي ١٥ ميل عن القاهرة[٢١١]، وتلك المنطقة أنشأ فيها السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م) القصور الفخمة ومنازل عديدة، وغرس فيها الأشجار

([207]) Ghistele,Voyage en Egypte, p.26,Baumgarten,The Travel of Martin Baumgarten,p.443

([208]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.184.

([209]) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, p. 172 , , Dopp , Le Caire , tome 23 , p. 148 , See Also , Wolff, How Many Miles to Babylon ? , p. 144.

([210]) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٧.

([211]) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 172 , Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp.xiv .

- سرياقوس: بلدة في الشرقية بها قصور ينزل بها السلطان وميدان وبساتين وقصور للأمراء الصغار والمماليك السلطانية ينزلون بها في أوائل فصل الخريف للتنزه، انظر: ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج٥، ص ٤٩.

والزهور ونقل إليها بعض النباتات من الشام حتى اكتملت عام ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م، وكان يخرج معه الأمراء والأعيان، فينزل هو القصر وينزل الأمراء والأعيان منازلهم التي بنيت لهم وكانوا يتوجهون إليها كل سنة للعب والصيد [٢١٢].

لا ريب أن سرحات الصيد كان يصاحبها عدة مظاهر اجتماعية وترفيهية، لضخامة أعداد المرافقين للسلطان، فقد شاهد بعض الرحالة موكب السلطان والأمراء عند الخروج في رحلة الصيد والذي كان يحتوي على أكثر من ٥٠٠٠ خيمة. [٢١٣] وبصحبته آلاف من الرجال الفرسان، يصل عددهم إلى ١٠٠.٠٠٠ فارس – ويبدو أنه عدد مبالغ فيه - ومعهم عدد كبير من طيور الباز، الذي يستخدمونه في الصيد، ويحملون معهم إيوان السلطان وأمتعة أخرى ثمينة يحمله مائة جمل، وعند ما ينصب الإيوان يصبح كأنه قصر صغير، حيث يحتوي على غرف للنوم وقاعات السمر والشراب، ثم ينصب إيوانات أخرى أقل حجما للأمراء والنبلاء والأعيان، ويصبح المكان مثل المدينة بها شوارع وصناع وباعة الطعام والشراب[٢١٤]، وقد بلغ اهتمام السلاطين المماليك بالصيد إلى حد أنهم أقاموا أحواشاً لطيور الصيد في طول البلاد وعرضها، والتي كانوا يستخدمونها في صيد الطيور والحيوانات وخصصوا لرعايتها ما لا يقل عن ٥٠ أو ٦٠ رجلًا للعناية بها وتربيتها[٢١٥]، وأول من اهتم بذلك هو السلطان الظاهر بيبرس، وبعده السلطان الناصر محمد بن قلاوون والذي كان مولعًا بالصيد، ولذا أقام أحواشا بالقلعة وجعل فيها خدما من الأسرى النصارى ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أقام تلك الأحواش في كل الأقاليم المصرية وسكن بها الأسرى لتربية الطيور والأغنام[٢١٦].

أما طريقة الصيد فكانت تتم بأن تطلق الطيور في الهواء، ثم ترمي لها الحبوب

([٢١٢]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٣٢٤.

([213]) Dopp , Le Cairo , tome 23 , p. 131.

([214]) Frescobaldi , A Visit to the Holy Places, p. 172.

([215]) Ghistele , LeVoyage en Egypte, , p. 115.

([٢١٦]) المقريزي، السلوك، ج٢ق٢، ص ٥٣١ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٧٨ ؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٧ -١٢٨.

فتهبط عليها، ويقوم الأمراء بعمل حلقة حولها[٢١٧]، ويدقون علي طبول يضعونها حول خصرهم مصدرين بذلك أصواتاً عالية تفزع الطيور حتي يتم صيدها[٢١٨]، وبعد أن يأخذ السلطان حظه من صيد الطيور يتحول إلي صيد الوحوش، فتعد الخيول وتقيم العساكر حلقة كبيرة واسعة تطلق داخلها النعام والظباء والبقر الوحشي، فيطاردها السلطان ومعه الطيور الجارحة، التي تصطادها فتشعر الوحوش بالذعر والفزع، وبعد أن يصطاد السلطان ويأخذ كفايته يترك لأمرائه حرية الصيد[٢١٩].

كانت لعبة الكرة من وسائل التسلية للطبقة الأرستقراطية الحاكمة في الدولة المملوكية والتي كانت لعبة شائعة أيضا عند العرب، وهي في الأصل لعبة فارسية لم يعرفها بنو أمية، وأول من لعبها كان بنو العباس، وكان أسبقهم هارون الرشيد وهي عبارة عن كرة في أرض الميدان فيتسابق الفرسان إلي التقاطها، وكانت تصنع من مادة خفيفة مرنة، وتلقي بعصا معوجة يسمونها الصولجان أو الجوكان، ويرسلون الكرة بها في الهواء، وهم علي خيولهم، وكان المعتصم شديد الرغبة فيها[٢٢٠]، وعرفت تلك اللعبة باسم الجوكان أو لعبة البولو في أيامنا هذه[٢٢١].

وقد شغف السلاطين المماليك بلعبة الكرة بدرجة كبيرة حتى أننا نجد مظاهر كثيرة من حياتهم تدل على الاهتمام بها، فكان المعز أبيك أول السلاطين المماليك الشغوفين بها ففي اليوم الذي قتل فيه في ربيع الأول عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٧ م نزل المعز من القلعة في الصباح ولعب الكرة في ميدان اللوق، وصعد آخر النهار إلى القلعة ومعه الأمراء في خدمته. [٢٢٢]، أما الظاهر بيبرس عندما تولى الحكم، كان

([٢١٧]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٦٧.

([218]) Ghistele, LeVoyage en Egypte , p. 115.

([٢١٩]) القلقشندى، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٦٩ -١٧١، L.OC.

([٢٢٠]) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٧٧ م، حاشية (٣)، ص ٢٩٣.

([٢٢١]) سعيد عاشور، المجتمع المصري في العصر المملوكي، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٢ م، ص ٧١.

([٢٢٢]) العيني، بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تاريخ الزمان، ج١، تحقيق محمد محمد

بدمشق عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م لترتيب المملكة وتوزيع النيابات على الأمراء، ركب إلى الميدان بدمشق ولعب الكرة مع الأمراء، ثم اجتمع معهم وحدد الإقطاعيات لهم[٢٢٣]، وفي سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م أمر السلطان بيبرس بعمارة الدور والمساكن في أرض اللوق لينزل فيها طائفة التتار المستأمنين (هم التتار الذين طلبوا الأمان واللجوء إلى اليدار المصرية بسبب النزاعات القائمة في بلادهم) وخرج بنفسه للقائهم ومعه العسكر وركب إلى الميدان وأركبهم معه للعب الكرة وأعطى كبراءهم الإمارة[٢٢٤].

بلغ اهتمام السلاطين بتلك اللعبة أنهم أنشئوا الميادين الخاصة للعب فيها مثل الميدان الظاهري الذي شيده السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بأرض اللوق، ومازال يلعب فيه الكرة ومن بعده من السلاطين حتى عام ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م، حيث قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بهدمه بسبب بعد النيل عنه وجعله بستانا حمل إليه أصنافاً عديدة من الشجر من دمشق[٢٢٥]، كما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون الميدان الناصري في أراضي بستان الخشاب فيما بين مدينة مصر (الفسطاط) والقاهرة للعب الكرة، وكان يركب دائماً أيام السبت حتى في شدة الحر بعد وفاء النيل

أمين، الهيئة العامة، ١٩٨٧ م، ص ١٤١.

- اللوق: معناها الأرض اللينة فإذا انحسر عنها ماء النيل لا تحتاج إلي الحرث ولذا فهي أرض زراعية لينة يزرع بها البساتين والمحاصيل ولم يوجد بها بناء إلا في عام ٦٦٠ هـ /١٢٦١ م بعد وصول المغول فأسكنهم الظاهر بيبرس فيها، انظر: سعاد ماهر، القاهرة وأحياؤها القديمة، القاهرة، ١٩٦٧ م، ص ٦٠.

(٢٢٣) بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص ١٩ ؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب ، ج٣٠، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة،الهيئة العامة، ١٩٩٠، ص ٤٦.

(٢٢٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٦٧ م، ص ٣٥ ؛ ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل الدمشقي، البداية والنهاية، ج ١٣، بيروت ١٩٨٢، ص ٢٣٤، المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٩٠-١٩١

(٢٢٥) المقريزي، الخطط، ص ٣٢٢ ؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٢٧ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٣٧.

لمدة شهرين في السنة[٢٢٦]، كما أنشأ ميادين أخرى لممارسة تلك اللعبة منها ميدان القلعة الذي أعد له الماء وغرس فيه النخيل ولعب فيه الكرة[٢٢٧]، كذلك أنشأ ميدان سرياقوس شرق بلدة سرياقوس، وكان يتوجه إليه كل سنة ويقيم به أياماً ويلعب فيه الكرة، واستمر ذلك التقليد بعد وفاته إلى أن أبطله الظاهر برقوق عام ٧٩٩ هـ/١٣٩٧ م[٢٢٨]، ولم يقتصر الأمر على لعب السلاطين في الميادين وإنما كانوا يلعبونها في ظاهر الإسكندرية، فقد دخل السلطان بيبرس الإسكندرية في صفر سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م وخلع على الأمراء بالخلع والإقطاعيات وحمل إليهم النفقة ولعب الكره معهم بظاهر الإسكندرية[٢٢٩].

كان السلطان والأمراء يجتمعون معا للعب الكرة في الميدان في أوقات محددة، ففي عام ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م شاهد راهب من كلونمل clonmel في ايرلندا مباراة الكرة التي أقيمت في ميدان القلعة فوصفها على النحو التالى: هنا ارض فضاء مسطحة ومربعة تسمي الميدان mida، وفي تلك البقعة كان السلطان في بعض الأوقات يتسلى مع الأمراء وغيرهم من ضباط الجيش، والمباراة التي يلعبونها تشبه جدا اللعبة التي يلعبها الرعاة في الأراضي المسيحية باستخدام كرة وعصا معقوفة ولكنهم (السلطان وأمراؤه) يضربون الكرة علي ظهور الخيول ولا يلعبونها بطريقة عسكرية وهكذا كانت طريقة اللعب تعتمد على الكرة والعصا، حيث يضرب اللاعب الكرة بالعصا من فوق الخيول. [٢٣٠]، وكان الميدان الذي تقام فيه اللعبة مخططًا بخطوط بيضاء، وعلى أحد الجانبين للساحة يقف بضعة آلاف فارس ويرسمون خطوطًا على الجانبين أمامهم، ويمسك كل منهم مضربًا بيده (عصى أو الصولجان)، وتكون يده قابضة على رمح، والكرة توضع في وسط

([٢٢٦]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٣٢٥ -٣٢٦.

([٢٢٧]) نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٧١.

([٢٢٨]) المقريزى، الخطط، ج ٣، ص ٣٢٤.

([٢٢٩]) النويري، نهاية الإرب، ج٣٠، ص ١٧٠؛ المقريزي، السلوك، ج١ق٢، ٥٨٤؛ ابن عساكر، شافع بن علي، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز خويطر، ١٩٧٦ م، ص ١٤٩.

([230]) Wolff , How Many Miles to Babylon ? , p. 22.

الساحة، ثم يهجم الجميع على الكرة في وقت واحد ويتجه نحو أحد الجانبين ويدفعها عبر الخط، على حين يحاول الفريق الآخر عمل ذلك بنفسه فإذا تمكن أحد الجانبين من دفعها عبر الخط كان هو المنتصر[٢٣١]، وكانت الساحة تمتلئ بنساء السلطان وحريمه والأمراء والنبلاء في مقصورة خاصة بهم، وعندما يضرب السلطان الكرة يهلل المتفرجون ويصفقون بصوت عالي ويضربون الطبول، بالإضافة إلي ضوضاء الخيول والفرسان ويحدث صخب وضوضاء شديدة مما يجعل المرء يظن أن مكونات الأرض وما عليها تهتز وتكاد أن تقع أو تطير على حد قول الرحالة الأيرلندي[٢٣٢].

ومن الألعاب الرياضية الأخرى التي شغف بها السلاطين المماليك هي لعبة رمي القبق (مباراة ضرب القرع) ومعناها القرعة العسلية، وهي دائرة على شكل قرعة عسلية من ذهب أو فضة [٢٣٣]، وتلك اللعبة عبارة عن خشبة عالية في ميدان اللعب، ويعمل بأعلاها دائرة من خشب، ويقف الرماة بالقوس والسهام لإلقاء السهام في جوف الدائرة، ويكون بها طير حمام مربوطة في الطرف العلوي، فمن أطلق سراح الحمام المربوط فقد فاز ويحصل على هدية من السلطان، عبارة عن خلعة أو عباءة سلطانية، وكان أكثر المتنافسين يمنحون لقب الأستاذ وتتم ترقيتهم ويحصلون علي مكافأة مالية تساوي إيراد عشرين قرية[٢٣٤].

كما يروي فيلكس فابري أن مدينة القاهرة كان فيها تسلية وترفيه، فقد كان في منزل كبير التراجمة مجموعة من الطيور والحيوانات النادرة، سواء الأليفة أو المتوحشة مثل النعام والببغاوات والأسود والدببة كل هذا في فناء المنزل، كما شاهد بعض المصرين في منزله يقومون ببعض الألعاب المسلية والحيل مستخدمين الدببة والزراف والأسود [٢٣٥] وهو ما يشبه السيرك في العصر الحالي.

([٢٣١]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٧٤.

([232]) Wolff,op.cit, p. 24

([٢٣٣]) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٧٢

([٢٣٤]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٨١ ؛ ابن عساكر، حسن المناقب، ص ١٦٢-١٦٣ ؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ١٥٥ ؛ Wolff , op.cit , p. 19.

([235]) Fabri , Le Voyage en Egypte 1483, trad. Du Latin Presente et annote

- علاقة السلطات المملوكية الحربية بالقوى الداخلية والخارجية:

ثورات العربان:

كان في داخل البلاد عربان يقيمون في أنحاء متعددة، منها الشرقية والغربية والوجه القبلي والبحري، بالإضافة إلى عرب صحراء الشام، وكانوا دائما مصدر قلق وإزعاج للحكام والشعب على حد سواء، وتعددت ثوراتهم وقيامهم بأعمال السلب والنهب والاعتداء على الآمنين في الصحراء أو الهجوم على القرى الريفية لأسباب عديدة، وكثيرا ما كانوا ينتهزون الفرص، وخاصة عندما تحدث فتنة بين الأمراء المماليك وتضطرب الأحوال الداخلية و ينعدم الأمن أو خروج السلطان المملوكي والجيش إلى خارج البلاد لمحاربة عدو خارجي. ويذكر منديفيل _ الذي عاصر فترة الناصر محمد بن قلاوون وخرج مع جيشه في حروبه ضد العربان _ أن هؤلاء العربان محاربون شجعان وعددهم لا يحصى ولا يخافون السلطان ولا الأمراء، ويتميزون بجراءة شديدة وغلظة في التعامل ويشنون الثورات والفتن ضد السلطان في أي وقت دون خوف منه[٢٣٦].

وفي بداية حكم المماليك اتخذت ثورات العربان شكلا سياسيا، بمعنى أنهم قد رأوا أن حكم المماليك حكم غير شرعي وليس لهم الحق في السلطنة، ولذلك شاركوا في الأحداث السياسية الجارية، وكانت معظم حركاتهم عند تولي سلطان جديد أو أثناء حكم سلطان صغير السن، وفي فترات الانقلابات والفتن الداخلية بين الأمراء المماليك. ففي عام ٦٥١ هـ / ١٢٥٠ م عندما تولي المعز أيبك السلطنة، ثار العربان ببلاد الصعيد والوجه البحري، وقطعوا الطريق برا وبحرا بقيادة الأمير الشريف حصن الدين بن ثعلب الجعفري وقالوا نحن أصحاب البلاد ونحن أحق بالملك من المماليك وكفى أننا خدمنا بني أيوب وهم خوارج خرجوا عن البلاد[٢٣٧]، وتجمعوا في أماكن

---

par J. Masson, Le Caire , 1975 , tome 3 , p , 954.

([236]) Wright , Early travelers ,p. 160.

([٢٣٧]) المقريزي، السلوك، ج١ ق١، ص ٣٨٦.

- الأمير حصن الدين بن ثعلب الجعفري: ينتهي نسبه إلي جعفر بن أبي طالب وكان من أشراف الصعيد ومقره مدينة ديروط ولذلك تسمي ديروط الشريف، انظر، علي مبارك، الخطط التوفيقية

عدة حتى بلغ عدد فرسانهم ١٢ ألف، فتجمع لهم جيش المماليك بقيادة الأمير فارس الدين أقطاي، الذي أوقف العربان وهزمهم، وكذلك فعل بعرب الغربية والمنوفية وقتل وسبي وغنم الكثير، وأخمد تلك الثورة وهرب ابن ثعلب ثم طلب الأمان فأجيب له، ثم قبض عليه مع عدد من أصحابه وشنقوا جميعا، إلا ابن ثعلب فإنه سجن بالإسكندرية[٢٣٨]، ثم عادوا مرة أخرى عند مرض السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م وتولية ابنه الأشرف خليل بن قلاوون، وثاروا في مدينة قوص لكن الأمير طرنطاي استطاع كبح جماعهم وتأديبهم [٢٣٩].

وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون انتهز العربان فرصة انشغاله بالحروب ضد المغول ومنعوا الخراج وأعلنوا الثورة على السلطان عام ٧٠١ هـ / ١٣٠٠ م، ولكن الأميرين سيف الدين سلار وركن الدين الإستادار استطاعا أن يوقعا بهم هزيمة ساحقة وكسر شوكتهم عند مدينة قوص [٢٤٠]، ثم اشتد خطرهم بعد ذلك حتى سيطروا على الصعيد، وعندئذ استعد لهم الناصر محمد بن قلاوون، فأعد جيشًا قويًا وبعد أن اكتملت العدة اتجه الجيش إلى الصعيد، حيث حاصر العربان، وصدرت الأوامر من السلطان الناصر محمد بأن يعمل فيهم السيف كبيرا أو صغيرًا ولا يبقوا على أحد، وكانت بالفعل حرباً قويةً فعالة حققت نصرا رائعا عليهم، بحيث لم يمكن إحصاء عدد القتلى لكثرتهم في حين فر الباقون إلى الكهوف[٢٤١].

الجديدة لمصر والقاهرة، ج ١١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠ م، ص ٣-٦ .

([٢٣٨]) النويري، نهاية الإرب، ج ٢٩، ص ٤٢٨-٤٢٩.

([٢٣٩]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢٤.

- الأمير طرنطاي: هو الأمير طرنطاي المحمدي، كان من مماليك المنصور قلاوون، وشارك في قتل الأشرف خليل بن قلاوون، ثم تولي الإمارة، ثم قبض عليه وسجن لمدة سبع وعشرين عاما وأفرج عنه عام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م، وأخرج إلي دمشق فمات بها، انظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٣١.

([٢٤٠]) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج ٩، تحقيق زبيدة عطا، القاهرة، ١٩٨٩ م، ص ٣٤٧ ؛ مؤلف مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زترستين، ليدن، ١٩١٩م، ص ١٠٧ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٥٣.

([٢٤١]) المقريزي، السلوك، ج ٢ق ٢، ص ٣٣٥.

وخلال الفترة التي عاش فيها الرحالة منديفيل في قصر السلطان محمد بن قلاوون واشترك في بعض غزواته ضد العربان، لكنه لم يتناول ذكر تلك الغزوات وما حدث فيها، و يبدو أن أهم تلك الغزوات كانت عام ٧٣١ هـ / ١٣٣٠ م. وكذلك ما حدث عام ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م في عهد السلطان الملك الصالح صالح بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٥٢ – ٧٥٥ هـ) (١٣٥١ – ١٣٥٤ م)، حيث ثار عربان الصعيد ثورة جامحة استمرت لمدة عام كامل، ونشروا الفساد والرعب، ونهبوا الغلال وقتلوا عدداً من العمال وكان زعيمهم أبن الأحدب شيخ قبيلة عرك، واجتمع حوله عدد كثير، فخرج لهم السلطان بنفسه ومعه أمراؤه وجنده، بقيادة الأمير شيخو العمري والأمير ضرغتمس الناصري والأمير طاز وأوقعوا بهم وقتلوا نصفهم وقطعوا رءوس كثير منهم وبلغ عدد القتلي حوالي ١٠ الآف – والراجح أن هذا العدد مبالغ فيه - واستمر شيخو في محاربة العربان لمدة ثلاثة شهور، وعادوا إلى القاهرة بالأسرى والغنائم الكثيرة من الجمال والسيوف والأغنام،وأعدموا الأسرى وكان عددهم ٧٠٠ أسير، وفر الباقي وبعد فترة طلب زعيمهم ابن الأحدب الأمان فأمنه السلطان وخلع عليه وأقره على مشيخة قبيلته[٢٤٢].

([٢٤٢]) المقريزي، السلوك، ج ٢ق٣، ص ٨٩٨ – ٨٩٩ ؛ ٩٠٧ – ٩١٥.

- ابن الأحدب: هو محمد بن واصل ولكنه لم يكن أحدباً ولكن أقفص (كل ما طال وانحني) ولذلك اشتهر بالأحدب وقام في عرب عرك بالصعيد، ونتيجة إهمال الولاة بعد موت السلطان الناصر محمد، قلت مهابة الكشاف والولاة فخرج العربان عن الحد وقطعوا الطرق برا وبحرا، وأدعي الأحدب السلطنة وجمع العرب حوله والفلاحين، ولكن السلطان الملك الصالح قبض علي عدد كبير من العربان وهرب الأحدب، ثم شفع له الشيخ المعتقد أبي القاسم الطحاوي، فعفا عنه السلطان وأعطاه إقطاعا وأكرمه تكريما للشيخ، انظر، المقريزي، السلوك، ج٢ ق٣، ٩٠٩ – ٩١٣.

- الأمير شيخو: هو شيخو الناصري، تقدم في أيام المظفر حاجي، واستقر في أول دولة الناصر حسن وكان له شأن عظيم، ثم تولي نيابة حلب، ثم سجن بالإسكندرية، وفي عهد الصالح صالح أفرج عنه و توجه معه لمحاربة العربان، ثم شارك في خلع الصالح وإعادة الناصر حسن، واستقر هو مدبر المملكة، وفي عام ٧٥٨ هـ / ١٣٥٦ م وثب عليه احد المماليك وجرحه بالسيف في وجهه ويده، وظل في منزله حتى توفي في نفس العام، انظر، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١١٥ -١١٦ ؛ الصفدي، صلاح الدين بن خليل بن ايبك الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ج٢، تحقيق، علي أبو زيد وآخرون، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨ م، ص ٥٣١ – ٥٣٥.

لم تسلم المدن الكبرى في بلاد الشام أيضًا من غزوات العربان، ففي عام ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م عندما زار الرحالة مشيولم بن مناحم مصر والشام وقبل وصوله إلى غزة في يوم ٢٢ جمادى الآخر الموافق ٢١ يوليو، علم أن العربان اللصوص قد هاجموا ثلاث رجال قرب مدينة غزة وأخذوا جملين محملين بالبضائع، وعندما وصل غزة عرف أن نائبها ذهب لمحاصرة العربان الذين هاجموا مدينة رام الله وأشعلوا فيها النيران، وكان هؤلاء العربان يتزعمهم فارس منهم وقد قام السلطان منذ فترة قريبة بقتل أخيه فقرر الانتقام له، وذلك بمهاجمة القوافل في الصحراء، وتدمير وتخريب المدن والقرى الريفية، وباءت حملات السلطان بالفشل حتى استطاع ذلك الأعرابي دخول مدينة رام الله، وخاصة أن السلطان الأشرف قايتباي كان مشغولًا في ذلك الوقت بالحرب، ضد زعيم قبيلة الشاه البيضاء التركماني أوزون حسن أو حسن الطويل Uzan Hassan وقتل من جند السلطان ٣٠ ألف جندي، ولذا كانت هناك فرصة مناسبة للتمرد ولقيام العربان بالهجوم والنهب، وعندما ذهب أمير غزة لمساندة أمير رام الله لم يحققا نجاحًا وانهزمت قواتهما وقتل جنودهم وكانوا حوالي ٢٣ ألف جندي، وعاد إلى غزة منهزماً[٢٤٣].

- الأمير صرغتمش: هو الأمير صر غتمش الناصري جلبه ابن الصواف التاجر، فاشتراه الناصر حسن بأربعة آلاف دينار وترقي إلي أمير طبلخانة، ثم راس نوبة كبير فتصرف في الولاية، وعظم شأنه في دولة الصالح صالح، ولذلك قبض عليه السلطان وسجنه بالإسكندرية ثم قتلوه عام ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧ م، انظر، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص ١٢٢ -١٢٣ ؛ الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص ٥٥٦ ــ ٥٥٧.

- الأمير طاز: هو الأمير طاز بن قطغاج، كان بدايته أيام الناصر محمد إلي حكم الصالح إسماعيل والناصر حسن، وزادت شهرته، وهو الذي امسك بيبغاروس (احد المماليك المتمردين) في طريق الحجاز والملك المجاهد صاحب اليمن و ثقبة صاحب مكة و طفيل صاحب المدينة، وتولي نيابة حلب في أول دولة الناصر حسن الثانية، ثم أعلن العصيان وخذله أمرائه، وامتنع عن الحضور إلي مصر فقام نائب الشام بالقبض عليه وسجن بالكرك، ثم الإسكندرية، ثم أفرج عنه يلبغا، وأقام في القدس ثم نقل إلي دمشق ومات بها عام ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م، انظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٢٨ -١٢٩ ؛ الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ٥٦٧ ــ ٥٧١.

([243]) Adler, Jewish Travelers, pp. 180 , 184-185.

- الشاه البيضاء: تعني في المصادر بـ " البايندرية " و " آق قويونلو "، أما " البايندرية " فذلك لأنهم

أما عن خطرهم في الصحراء وتعرضهم للقوافل بالهجوم والسلب فقد أوضحت الباحثة ذلك في الفصل التمهيدي عند الحديث عن الخطر الداخلي الذي واجه هؤلاء الرحالة عند السفر عبر الصحراء الشامية والمصرية. ونخلص من ذلك أن العربان ظلوا لفترة طويلة يمثلون عبئا ثقيلا وشوكة قوية في جنب الدولة المملوكية و مصدر قلق وتوتر للحكام وخطرًا مؤثرًا على الأوضاع السياسية الاقتصادية في البلاد.

- **الحرب ضد التركمان:**

التركمان هم شعوب سكنت الأطراف الشمالية للدولة المملوكية، وارتبطت بعلاقات متقلبة غير ثابتة، فأحيانا كانت تلك العلاقات تتسم بالخضوع والتبعية من قبل التركمان، وأحيانا أخرى كانت تتسم بالفتن والثورات والعدوان والمناوشات المتبادلة بين الطرفين، وقد اشتد خطر التركمان على الدولة المملوكية، واتخذت العلاقات شكل عداء شديد في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وخاصة عندما كثرت الفتن الداخلية والثورات في دولة المماليك وضعفت وعجزت عن حماية حدودها وعن الاحتفاظ بقوتها. بدأ ذلك الخطر بقيادة تيمورلنك (٧٨٤ – ٨٠٧ هـ) (١٣٨٢ – ١٤٠٤ م) منذ أيام سلطنة الظاهر برقوق الثانية (٧٩٢ -٨٠١ هـ) (١٣٩٠ – ١٣٩٩ م)، حيث استطاع تيمورلنك الاستيلاء على بغداد عام ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م وخربها

ينتمون إلي " بايندر بن كوك " احد أبناء " اوغوز خان " الذي ينتمي إليه التركمان، أما " آق قويونلو " فهي كلمة تركية مركبة من " آق: بمعني ابيض، و" قويون " بمعني خروف أو شاه، و " لو " لاحقة تركية، وبذلك تعني الكلمة كلها " طائفة الخروف أو الشاه البيضاء "، انظر، حسناء حسين محمد، الإمارات التركمانية علي حدود دولة المماليك، ماجستير غير منشور، بنات عين شمس، ٢٠٠٢ م، ص ٢٧.

- أوزون حسن: هو حسن بك بن علي بك بن قرا يلوك عثمان صاحب ديار بكر وأخو جهانكير الماضي ووالد أبي المظفر يعقوب صاحب الشرق ويعرف بالطويل. انتزع مملكة الحسن من بني أيوب بقتله لزين العابدين الملقب بالصالح وأخويه بني علي بن محمود بن العادل سليمان وذلك في سنة ست وستين. ومات في جمادى أو رجب سنة اثنتين وثمانين بعد أن أخذ ملك الروم ابن عثمان جنده، واستقر بعده ابنه الكبير خليل فحاربه أخوه المشار إليه يعقوب وقتل بعد ذلك.، انظر: السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج ٤، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٤ هـ، ص ٢٤ – ٢٥.

وقتل أكثر أهلها [٢٤٤]، ومالبث أن أرسل تيمورلنك سفارة إلي الظاهر برقوق، تحمل رسالة تهديد ووعيد، فأمر برقوق بقتل الرسل جميعا وبدأ الاستعداد للحرب[٢٤٥] وبوصول تيمورلنك إلى ذلك الوضع، أصبح الصدام وشيكاً وحتميا بين الطرفين، ثم استغل السلطان الظاهر برقوق فرصة انشغال تيمورلنك ببعض أمور الحكم في الهند، وعين أميرًا مملوكيًا بنيابة السلطنة في بغداد وزوده بالمال والعتاد والمماليك والأمراء، واستعاد برقوق بذلك سلطة المماليك على بغداد مرة أخرى حتى توفي عام٨٠١ هـ - ١٣٩٩م[٢٤٦].

ثم عاد تيمورلنك عام ٨٠٢ هـ / ١٤٠٠ م وأعد جيشًا جديدًا قويًا، واستولي على عدد من المدن الشامية، وتقدم ناحية دمشق وحاصرها لمدة شهر كامل، ولم يستطع السلطان الناصر فرج بن برقوق الدفاع عنها وأنزل تيمورلنك الهزيمة بجيوش المماليك، واستولى على مدينة دمشق بالفعل عام ٨٠٣ هـ - ١٤٠١ م وأشعل فيها النيران حتى تحولت المدينة إلى رماد واستولي على ما بها من أموال وذهب وفضة ومجوهرات وأخذ معه الصناع والعمال المهرة [٢٤٧] وبعد ذلك بعدة سنوات مات تيمورلنك وتمزقت دولته العظيمة بسبب النزاع على العرش بين الورثة.

خفت حدة العداء بين التركمان والمماليك واستمر الوضع شبه هادئ حتى عهد

([٢٤٤]) المقريزي، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٧٨٨ – ٧٨٩ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٤٣ - ٤٤.

- تيمورلنك: هو تيمورلنك بن طرغاي السلطان الأعظم، " اللنك " تعني الأعرج في لغتهم كان ابتداء ملكه بعد انقراض دولة جنكيز خان، فظهر في تركستان وسمرقند وتغلب علي ملكهما، وبدأ الزحف علي خوارزم وخراسان وأذربيجان، ثم تقدم إلي قلاع الأكراد وأطراف بلاد الروم، ثم أغار علي أملاك السلطان المملوكي في حلب وبغداد ودمشق، ثم اتجه ناحية بلاد الروم وحارب السلطان العثماني بايزيد، ثم اتجه إلي بلاد الخطا فمات في الطريق بسبب الثلوج وتولي حفيده خليل بن ميران شاه بن تيمور، انظر، السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص ٤٦ -٥٠ ؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص ١١٩ -١٢٣.

([٢٤٥]) المقريزي، السلوك، ج٣ ق٢، ص ٧٩٧.

([٢٤٦]) سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ١٦٥.

([٢٤٧]) المقريزي، السلوك، ج٣ ق٣، ص ١٠٣٠ -١٠٥١ ؛ Dopp , Le Egypte , p. 119.

السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥ – ٨٤١ هـ (١٤٢٢ – ١٤٣٨ م) ولم يغفر التركمان للمماليك ما فعلوه بهم منذ أيام السلطان الملك المؤيد شيخ (٨١٥ – ٨٢٤ هـ) (١٤١٢ – ١٤٢١ م)، حيث دمروا وخربوا مدناً كثيرة في بلادهم ثم قام الأمير التركماني عثمان قرايلوك (٧٨٠ – ٨٣٩ هـ) (١٣٧٨ -١٤٣٦ م) زعيم الشاه البيضاء بالتوغل في حدود الدولة المملوكية وهاجم سوريا عام ٨٣٠ هـ - ١٤٢٩ م فرد عليه برسباي بحملة عسكرية عام ٨٣٢ هـ / ١٤٣١ م أسر فيها هابيل ابن عثمان بن قرايلوك[٢٤٨]، ثم أرسل عثمان بن قرايلوك زعيم الشاة البيضاء سفارة إلى السلطان الأشرف برسباي عام ٨٣٦ هـ - ١٤٣٢م تحمل هدية تشمل مرآة وخروف وخلعة، وفهم برسباي أن الهدية تعبر عن سخرية واستخفاف بالسلطان المملوكي وجيشه، فذبح برسباي الخروف أمام الرسل وألبس أحد الهزليين الخلعة ورقص بها، وحطم المرآة، ثم صرف رسل عثمان بن قرايلوك بعد إهانتهم[٢٤٩].

حدثت الحرب بين الطرفين في نفس العام، حيث خرج برسباي بجيشه إلي آمد وحاصر قلعتها، واشتد الحصار، وحدث ارتباك واضطراب في صفوف الجند المملوكي بسبب طول فترة الحصار الذي استمر مدة شهر، فضعف عزم الجند، وغضب برسباي من عدم تمكنهم من اقتحام أسوار القلعة، وانتشر الغلاء حتى خشي برسباي من وقوع الفتن بين الجند، وفي نفس الوقت أرسل عثمان بن قرايلوك سفارة لطلب الصلح، فوافق برسباي وعقد الصلح، علي ألا يتعدى قرايلوك علي بلاد السلطان، و لا يتعرض للحجاج في طريق الحج، وان تضرب السكة (العملة) باسم

---

(٢٤٨) Dopp , Le Egypte , p. 103. - عثمان قرا يلوك: عثمان بن قطلوبك التركماني أمير التركمان بديار بكر وصاحب آمد وماردين، يعتبر المؤسس الحقيقى لقبيلة الشاه البيضاء، وساعد تيمورلنك في حروبه في بلاد الشام وحصل علي ديار بكر مكافأة له، ثم استقل بنفسه وحارب المماليك لفترة طويلة، وكذلك بعض أمراء التركمان، وتوفي بجراحه سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٦ م، وقد بلغ التسعين من عمره، انظر، الشوكاني، البدر الطالع، ج ١، ص ٢٨٥ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص ١٣٥ – ١٣٧.

(٢٤٩) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٢٠- ٢٢١.

السلطان، ويخطب باسمه في المساجد [٢٥٠] وهكذا انتهت الحرب بصلح سريع بينهما. ولكن قرايلوك لم يكن ليرضي بذلك الصلح، وانتهز فرصة هروب الأمير جانبك الصوفي من سجن الإسكندرية إلي الشام عام ٨٣٨ هـ / ١٤٣٥ م، وأرسل إلي أمراء التركمان للانضمام إليهم ضد برسباي ومنهم عثمان بن قرايلوك الذي استقبله وأسرع بإبلاغ برسباي وطلب منه الإفراج عن ابنه هابيل مقابل تسليمه الأمير جانبك، فوافق الأشرف برسباي وأطلق سراح ابن عثمان ولكن الأخير رفض تسليم قاني بك، مما أغضب برسباي فأرسل حملة تأديبية[٢٥١] ثم هدأت العلاقات مرة أخرى.

عادت الخلافات مرة أخرى في عهد السلطان الأشرف قايتباي وقد شاهد الرحالة الراهب فيلكس فابري الذي زار مصر والشام عام ١٤٨٢ – ١٤٨٣ م فرقة عسكرية قرب غزة تتكون من ثمانية آلاف مملوك، وقد أقاموا الخيام في ذلك الموقع استعداد للذهاب لحرب ملك التركمان [٢٥٢]، وكانت تلك الحرب مع أوزون حسن أو حسن الطويل Uzan hassan زعيم قبيلة الشاة البيضاء، ثم مع ابنه الأمير خليل والذي استطاع هزيمة المماليك، وقتل منهم عدداً كبيراً من الجنود[٢٥٣]، وكان الأمير يشبك الدوادار المملوكي شن هجوما على الشاة البيضاء في شمال العراق والشام ولكنه قد أسر وقتل عام ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م، ولما سمع الأشرف قايتباي بذلك اضطربت أحوال البلاد وغضب لما حدث وبادر بإرسال حملة عسكرية للانتقام للأمير يشبك ولكن الأمير خليل بن حسن بن أوزون بادر بالاعتذار [٢٥٤] ثم عادت العلاقات هادئة مرة أخرى بين سلطنة المماليك والتركمان حتى استولي العثمانيون على دولة التركمان.

([٢٥٠]) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٨٩٣- ٨٩٤ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ١٢ -٢٨ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة الشعب، ١٩٦٠ م، ص ٣٢٨ – ٣٢٩.

([٢٥١]) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٩٤٧ – ٩٨١.

([252]) Fabri , The Wanderning , vol 2 part 2 , pp.442-443.

([253]) Adler ,Jewish Travelers, pp. 184 -185.

([٢٥٤]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٥٩ ؛ ٨٠ ؛ ٨٦ ؛ ٢٣٠.

- **العلاقة بين المماليك والحبشة:**

اتسمت تلك العلاقة بالود والتفاهم، حيث كانت كنيسة دولة الحبشة المسيحية تتبع الكنيسة المرقصية بالإسكندرية، وكانت الحبشة ترسل كل فترة بطلب إلى السلطان المملوكي بتولية مطران لكنيستها من مصر، ويرفق مع الرسول مبلغاً كبيراً من المال، وهدية للسلطان المملوكي في القاهرة.كما كانت في بيت المقدس جالية حبشية كبيرة العدد، وكان هناك العديد من الحجاج الأحباش الذين يرغبون في زيارة الأماكن المقدسة، وكان لزاماً عليهم المرور بمصر في طريقهم إلى بيت المقدس، وكان السلطان المملوكي يأمر بإعفائهم من رسوم المرور بالأراضي المصرية، وسمح لهم بارتداء الصليب في أعناقهم ومنع أي شخص من التعرض لهم بالأذى[٢٥٥]، وهكذا كان العامل الديني أقوي رباط بين الدولتين.

لم تلبث العلاقات أن ساءت فيما بعد، بسبب غزو الحبشة لحدود مصر الجنوبية منتهزة فرصة الاضطرابات والتطاحن بين الأمراء المماليك من أجل السلطنة منذ بداية حكم المماليك الجراكسة، كما زاد الخوف من الأحباش في بيت المقدس، حيث وصلت أخبار إلى السلطان المملوكي بمراسلات بين البابا في روما وملك الحبشة، بهدف التحالف معا ضد الدولة المملوكية والقيام بحملة صليبية على المسلمين وخاصة بعد طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام وبسقوط عكا. ولذلك اتفقت البابوية مع ملك الحبشة على أن يقوم ملك الحبشة بتغيير مسار نهر النيل وتجويع مصر مما يؤدي إلى خسائر اقتصادية فادحة لمصر وللدولة المملوكية بأكملها ويؤثر ذلك بشكل مباشر وقوى على قوة المماليك اقتصاديًا وعسكريًا ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل الذر يع وعادت الصداقة بين الدولتين بتقديم الهدايا وإرسال الرسل للصلح والتفاهم [٢٥٦].

السياسة المملوكية تجاه غارات القراصنة الفرنج:-

كان سقوط عكا في أيدي المسلمين عام ٦٩٠ هـ - ١٢٩١ م على يد السلطان

([255]) Ghistele, LeVoyage en Egypte , p. 62 .

([256]) Ibid , p. 61 , Frescobaldi, A Visit to the Holy Places , p. 176 .

الأشرف خليل بن قلاوون [٢٥٧] بمثابة الضربة القاسمة للصليبيين في الشرق، وللبابوية أيضا التي حاولت بكل الطرق أن تعيد الوجود الصليبي في بلاد الشام مرة أخرى، ففي البداية قررت البابوية فرض حصار اقتصادي على الدولة المملوكية، ومنع الدول الأوربية من المتاجرة معها، لأن التجارة هي المصدر الأساسي للدخل القومي للدولة المملوكية، وبالتالي مصدر قوتها السياسية والعسكرية، ولكن تلك الخطة باءت بالفشل ولم يقدر لها النجاح أمام المصالح التجارية الأوربية، حيث تحايلت الدول الأوربية كثيرا على عدم تحقيق هذا التحريم بوسائل عديدة لتستطيع الاستمرار في التعاملات التجارية مع الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط[٢٥٨]، ولذا نشطت أعمال القرصنة وعمليات النهب والسلب والتخريب للموانئ المصرية والشامية، وخاصة بعد رحيل فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة رودس وقبرص [٢٥٩] واتخاذ

([٢٥٧]) النويري، نهاية الإرب، ج ٣١، ص ١٩٥ – ١٩٨ ؛ المقريزي، السلوك، ج ١ق٣، ص ٧٦٢ -٧٦٥.

([٢٥٨]) سليمان عطية، سياسة المماليك في البحر الأحمر حتى نهاية عصر برسباي، دكتوراة غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٥٩ م، ص ٧٨ -٨٤ ؛ عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها علي العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، ط٢، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٠ م ص ٧٩ -٨٨ ؛ هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص ٢٥٤ -٢٥٥ ؛ ٢٧٦ ؛ ٢٨٠ ؛ Deeping,(E.),Histoirede =Commerce enter le Levant et Le Europe depuis des les Craissades, Paris,1830,p. 176.

([٢٥٩]) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين ١٢-١٣م، دار المعارف، ١٩٧٩م، ص ٦٥.

- جماعة فرسان القديس يوحنا (يسمون أيضا بفرسان المستشفي أو بفرسان الإسبتارية): وهي جماعة رهبانية عسكرية أنشئت في بيت المقدس في القرن الثالث عشر الميلادي، علي يد شخص يدعي جيرارد وهو مواطن من مدينة أمالفي الإيطالية، وقد أسس مستشفي في بيت المقدس عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م من أجل إيواء الحجاج اللاتين الفقراء، ثم انضم كثير من الحجاج إليهم، واعترف البابا بتلك الجماعة عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣م، وانقسمت إلي ثلاث فئات هم: الفرسان أو الأخوة المقاتلون، ثم الأطباء، ثم القساوسة، انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٤٨٦ – ٤٨٧ ؛ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ترجمة السيد الباز العريني، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢٤٨ – ٢٤٩ ؛ سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٩٠ م، ص ٩٩، حاشية (٢).

القراصنة من تلك الجزيرتين قلعة لشن حملات صليبية على السفن الإسلامية في مياه البحر المتوسط، وتلي ذلك رد فعل قوي من السلطات المملوكية تمثل في أسر السفن الأجنبية والاستيلاء عليها، أو حبس الجاليات الأجنبية سواء كانوا من الرهبان أو الحجاج أو التجار والقناصل لحين عودة السفن المملوكية المأسورة واسترداد الأسرى والبضائع أو التعريض عنها.

كانت أقوى تلك الغارات عام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م حينما قام القبارصة بالهجوم على الإسكندرية ودمروا وخربوا جزءًا منها واستولوا عليها لمدة ثلاثة أيام، ولكن قبل الهجوم عليها أرسل الملك القبرصي بطرس الأول لوزجنان peter 1 (١٣٥٩ – ١٣٦٩ م) عددًا من الجواسيس، لدراسة مواطن الضعف والقوة في المدينة وإعداد خريطة واضحة للمكان، ليستطيع دخول المدينة بسهولة والاستيلاء عليها. وكان منهم أحد القساوسة الإيطاليين، حيث طلب منه الملك القبرصي بطرس الأول أن يحطم المرآة الموضوعة على منار الإسكندرية، والتي كانت ترصد وتحدد عدد السفن القادمة في البحر، بالإضافة إلى الإضاءة في أعلى المنار التي تضيء البحر ليلًا، ووعده بأنه إذا فعل ذلك سوف يكافؤه بتوليه أبرشية في قبرص، وبالفعل سافر ذلك القسيس من روما إلى الإسكندرية، وتعلم اللغة العربية والدين الإسلامي، وتقرب من الناس ثم عمل واعظًا مما جعله موضع ترحيب ومحبة من جهة السكندريين، وعندما تمكن من الوصول إلى هدفه أرسل إلى ملك قبرص يطلب منه القدوم بعد تحطيم المرآة والتي أحدثت دويًا هائلاً وصخبًا شديدًا، فأسرع الناس إلى البرج واكتشفوا أنه جاسوس أجنبي وحاولوا القبض عليه، ولكنه قفز إلى البحر ومات، وفي نفس الوقت تقدمت السفن القبرصية بقيادة الملك نفسه إلى ميناء الإسكندرية[٢٦٠].

كما عثر على سقاء أشقر البشرة وأزرق العينين، فقبضوا عليه فذكر لهم أنه قبرصي وأسلم وتزوج من سيدة مسلمة في القاهرة، ثم أودع في السجن وتعرض

([260]) Johan Schiltberger ,The bondage and Travel of Johan, schiltberger, native of Bavaria in Europe , Asia , Africa , (1396- 1427) , trans by Karl Fredric , London , 1859 , PP. 63.

للضرب والتعذيب حتى اعترف أنه جاسوس من جملة الجواسيس المنتشرين في مصر والشام، وفي ذات الوقت وجد عدد من الجواسيس الأجانب في زى النساء وقبض عليهم[٢٦١]، أما ملك قبرص نفسه فقد نزل مدينة الإسكندرية كأحد التجار المغاربة، وتجول فيها مع كاتب الديوان شمس الدين غراب وتعرف على أحوال المدينة[٢٦٢]، أضف إلى ذلك ما أورده الكاتب والفارس الصليبي المعاصر جيروم دي ماشو، حيث ذكر أن شخصًا يدعى برسفال كولوني كان في استطاعته التجول في المدينة بحرية تامة، مما ساعده على الإحاطة بظروف المدينة ومداخلها ومخارجها وأبلغ ذلك للملك القبرصي[٢٦٣].

وعندما دخلت القوات القبرصية الإسكندرية استولت على المدينة لمدة ثلاثة أيام وقام الجنود القبارصة بعمليات السلب والنهب والحرق والقتل حتى وصلت القوات المملوكية من القاهرة فهرب الملك القبرصي وجنوده ومعهم أسرى من السكندريين من النساء والأطفال [٢٦٤]، ثم أمر الأشرف شعبان بن الناصر محمد (٧٦٤ -٧٨٨ هـ) (١٣٦٣ – ١٣٧٧ م) بإنزال العقاب الجماعي على كل الأجانب المقيمين بمصر وبلاد الشام من الحجاج والرهبان والتجار، وحبسهم وصادر أموالهم لافتداء أسرى المسلمين[٢٦٥]، كما قبض الأمير جنغرا المملوكي على ٥٠ تاجرًا أجنبيًا في المدينة وحبسهم في سجن دمنهور[٢٦٦]، وبعد انتهاء تلك الكارثة لاحظ الرحالة الأوربيون أن الإسكندرية بها تحصينات جديدة بعد غزوة القبارصة، فوجدوا بها حامية عسكرية كبيرة حوالي ٨٠٠ مملوكي غير العربان والأتراك للدفاع عن المدينة بالإضافة إلى

([٢٦١]) أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية المصرية، الأسكندرية، ١٩٧٠ م، ص ٥٩٣.

([٢٦٢]) النويري السكندري، محمد قاسم بن محمد، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية، ج٢، تحقيق عزيز سوريال، ايتن كومب، الهند، ١٩٦٩-١٩٧٣ م، ص ١١٠-١١١.

([٢٦٣]) أحمد مختار العبادي،تاريخ البحرية، ص ٥٩٤.

([٢٦٤]) المقريزي، السلوك، ج٣ق١، ص١٠٦-١٠٧ ؛

schiltberger , The bondage and Travel , p. 63.

([٢٦٥]) المقريزي، نفس المصدر، ص ١٠٧.

([٢٦٦])النويري، السكندري، الإلمام بالإعلام، ج٢، ص ١٥٦.

الحصون وعدد من الأبراج وصل إلى ٢٢ برجاً وأقيمت أسوار عالية عند الميناء لصد أي هجوم مفاجئ[٢٦٧].

انشغلت قبرص بمشاكلها الداخلية فترة من الوقت، وعاد القراصنة القبارصة مرة أخرى عام ٧٩٠ هـ / ٣٨٨ م عندما هاجموا مراكب مصرية قادمة من الشام بها أقارب السلطان برقوق أيام فترة حكمه (٧٨٤ -٧٩١ هـ) (١٣٨٢ – ١٣٨٩ م)، فأمر بالقبض على الأجانب المقيمين وقناصلهم بمصر والشام[٢٦٨]، وتوالت أعمال القراصنة في البحر المتوسط بالهجوم على الموانئ المصرية والشامية ففي عام ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م أرسل الملك القبرصي سفنا للهجوم على ميناء الإسكندرية مرة أخرى وأسروا عددا كبيرا من المصريين في المدينة فجمع السلطان المملوكي القناصل الأجانب في الإسكندرية وطلب منهم مراسلة ملك قبرص لعودة الأسرى إلا أن ملك قبرص رفض ذلك فقام السلطان بإغلاق كنيسة القيامة في بيت المقدس لفترة طويلة، حتى استطاع أحد الملوك الأوربيين دفع مبلغًا كبيرًا من المال لافتداء الأسرى وفتح الكنيسة[٢٦٩]، وكان السلطان الملك المؤيد شيخ (٨١٥ – ٨٢٤ هـ) (١٤١٢ – ١٤٢١م) قد قبض على جميع التجار أيضًا والقناصل بالإسكندرية ودمشق، وسجنهم في أحد أبراج القلعة مطبقًا بذلك مبدأ العقاب الجماعي[٢٧٠].

هكذا ظل الوضع سيئًا للغاية وما حدث بعد ذلك كان أكثر، ففي عام ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م ورد الخبر بأن القبارصة أخذوا مركبين من مراكب للمسلمين قرب ثغر دمياط فيها بضائع كثيرة وعدد كبير من التجار زاد عن مائه رجل، وبأن ملك قبرص جانوس Janus (١٣٩٨ – ١٤٣٢ م) استولي على سفينة محملة بالهدايا كانت مرسلة من السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥ – ٨٤١ هـ) (١٤٢٢ –١٤٣٨ م) إلى السلطان

([267]) Adler , Jewish Travelers , p. 158 , Frescobaldi , A Visit to the Holy Places , p. 39.

([٢٦٨]) العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ج٢، ص ٢٨٧ ؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص ١٨٣ ؛

([269]) Dopp , Le Egypte , pp. 78-79.

([٢٧٠]) العسقلاني، إنباء الغمر، ج٧، ص ٢١٥ ؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص ٣٧٠.

العثماني مراد الثاني (٨٢٤ – ٨٤٧ هـ) (١٤٢١ – ١٤٤٣ م) [٢٧١]، وعندئذ ثارت ثائرة السلطان برسباي، وبدأ الاستعداد للاستيلاء على جزيرة قبرص التي كانت موطن ومركز القراصنة وجهز لذلك ثلاث حملات عسكرية قوية حتى استطاع في النهاية الاستيلاء عليها ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م، واسر الملك القبرصي الذي افتدى نفسه فيما بعد بمبلغ كبير من المال وقرر عليه كذلك جزية سنوية دليلًا على الطاعة والخضوع [٢٧٢]، واستمر الوضع هكذا حتى استولي البنادقة على جزيرة قبرص ومنذ ذلك الحين والسلطان يأخذ الجزية من الحاكم البندقي في قبرص.

كما قام القراصنة القطلان عام ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م بالهجوم على سفينة مصرية في مياه أضاليا في آسيا الصغرى، واستولوا على البضائع، وأسروا حوالي ١٥٠ تاجرًا مسلمًا وباعوهم في جزيرة ناكسوس التابعة للبندقية، فأرسل السلطان المملوكي إلى قنصل البندقية في الإسكندرية، وأخبره بما حدث وطلب منه أن يقوم بدور الوسيط لعودة الأسرى، ولكن القنصل أخبره بأن هذه الجزيرة ليست تابعة للبندقية، وفي شهر أكتوبر خرجت سفينة مصرية محملة بالبهار من ميناء الإسكندرية فهاجمهاالقراصنة واستولوا عليها، ولذلك جمع السلطان القناصل الأجانب مرة أخرى وطلب منهم دفع الفدية لحاكم الجزيرة واستعادة الأسرى وإلا لن يتم الإفراج عن تجارتهم ولا بضائعهم في الموانئ المملوكية، ووقع الاختيار على التاجر بيلوتي الكريتي للقيام بتلك المهمة التي أتمها على خير وجه، وعقد صفقة مع حاكم ناكسوس وأعاد الأسرى المسلمين إلى الإسكندرية[٢٧٣].

([٢٧١].) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٨.

- السلطان مراد الثاني: ولد عام ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م وجلس علي العرش في ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م، وكان عمره ١٨ عاما، وانشغل بالإصلاحات الداخلية وعقد صلحا مع الدول المجاورة، ثم انشغل بحروبه ضد أولاد قرمان في الأناضول، ثم مع ملك ألمانيا وعقد معه صلحا، ثم تخلي عن السلطنة عام ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م، انظر، إبراهيم بك حليم، التحفة الحليمية، ص ٨٥ – ٨٧.

([٢٧٢])ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٣٤٣ ؛ ج١٥، ص ٣٦١ -٣٦٣ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٣٨ ؛ Adler, Jewish Travelers , p. 161.

([273]) Dopp,Le Egypte, pp. 95-99 , See Also,Wolff, How Many Miles to

تعرضت موانيء الشام لغارات القراصنة، وخاصة ميناء بيروت، فلم يكن فيه وحدات من الأسطول المملوكي، بالإضافة إلى تخريب وهدم أجزاء من أسوارها وباقي الأسوار قليلة الارتفاع، ولذا كان بإمكان أي شخص تخطيها ودخول المدينة ومعنى ذلك أن الحماية في بيروت كانت غير كافية، مما دفع بحاكم جنوة المارشال دي بوسيكو إلى مهاجمة الميناء عام ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م بأسطول مكون من ١٤ مركباً،وعند وصوله الميناء هرب الأهالي إلى الجبال بعد أن جاءهم التحذير من البنادقة فدخلها الجنويون وضربوها وسرقوا ما يقرب من ٥٠٠ طن من التوابل قيمتها ٣٠٠.٠٠٠ دوكة ذهبية، ثم اتجه إلى طرابلس وهاجمها، ولكنه اضطر إلى التقهقر بسرعة بسبب وصول نجدات من المماليك والعسكر الطرابلسي فارتبك الجنوية وتركوا وراءهم ٣٠ جندي قبض عليهم السلطان وأعدمهم[٢٧٤].

وهكذا كلما زادت غارات القراصنة على الموانئ المملوكية، كلما تعسفت السلطات المملوكية في رد فعلها تجاه الجاليات الأوربية المقيمة على أراضيها، فعندما طلب السلطان المؤيد شيخ من التجار الأجانب دفع الأموال تعويضا لأهالي المفقودين الذين أسرهم القراصنة القطلان وباعوهم عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م، فأرسل قنصل القطلان بالإسكندرية سرا إلى رعاياه بدمشق ونصحهم بالهرب، لكن المؤيد شيخ علم بالمؤامرة وقبض عليه وأهانه وضربه ضربا مبرحا، ظل يعالج منه لمدة ستة شهور وسجنه ثم أعاده لمنصبه [٢٧٥].

ورغم ذلك بلغت جراءة القراصنة مداها في عام ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م حيث رست ثلاث سفن لهم بميناء الإسكندرية، وأعلنت قدوم وفد من ثلاثة رسل للتفاوض في عقد الصلح، فرحبت السلطات بمقدمها وسمحت للتجار بالنزول إلى الميناء وإنزال

Babylon , pp 83 -84.

([٢٧٤]) المقريزي، السلوك، ج٣ق٣، ص ١١١٤-١١١٥ ؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ١٧٩ ؛ Dopp , Le Egypte , pp.90-91.

([275]) Dopp , Le Egypte , pp. 111-114 , See Also , Dopp , Les Relations Egypte-Catalans et les corsairs au commencement du 15 siecle , le Caire , 1949 , p. 3.

البضائع من السفن وشراء التوابل، ولكن القطلان انتهزوا الفرصة وقاموا في إحدى الليالي بتخليص قنصلهم من سجن الإسكندرية، وبعد أن تم لهم ذلك أغاروا على الميناء واشتبكوا مع القوات المملوكية، فقتلوا عشرين وأسروا نحوا من ستين من المسلمين من الرجال والنساء، واستولوا على سفن للجنوية والبنادقة وسفن أخرى للمسلمين ثم أبحروا إلى جزيرة رودس قبل وصول القوات المملوكية[٢٧٦].

وقد تعرض بعض الرحالة الأوربيين للإهانة بسبب غارات القراصنة مثل الرحالة لابروكبير الذي زار مصر والشام عام ٨٣٦ هـ / ١٤٣٢ م، فقد حدث أن قام القراصنة بأسر سفينتين تابعتين للسلطان التركماني تيمورلنك في مياه البحر المتوسط أمام مدينة طرابلس ولذلك أرسل السلطان المملوكي برسباي إلى حاكم دمشق الذي قام بدوره بإلقاء القبض على التجار الوافدين من القطلان والجنوية، وكان منهم التاجر الجنوي الذي أقام عنده الرحالة لابروكبير، كما تم القبض على الرحالة ذاته وعرض الجميع على أحد القضاة ثم على قاض آخر الذي أرسله إلى السجن مع التجار الأجانب، وحاول لابروكبير دفع مبلغ من المال مقابل الإفراج عنه واضطر للاتصال بقنصل البندقية الذي أتصل بدوره بالحاكم ليفرج عنه وبعد التحقق من الأمر ثبت عدم مسئوليته في الحادثة وأفرج عنه بعد دفع مبلغ من المال[٢٧٧].

وعندما سافر الرحالة اليهودي ميشولم إلى غزة عام ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م وجد حراسة مسلحة في غزة بسبب هجوم القراصنة من ناحية البحر المتوسط على المدينة، وخاصة قراصنة رودس الذين كانوا يشنون هجمات على الحجاج والمسافرين، وعندما وصل الخان في الليل وجده خاليا، وكان سبب ذلك أنه في الليلة السابقة جاءت أربعة مراكب صيد من رودس وأسرت ستين رجلا كانوا في قافلة ، أما من كان في الخان فقد رحلوا وتركوا أمتعتهم، وكان عدد اللصوص القراصنة حوالي ٤٠٠ فاستولوا على الأمتعة[٢٧٨].

([276]) Dopp , Le Egypte , pp. 113-115.

([277]) Wright, Early travelers , p. 301 , 307.

([278]) Adler, Jewish Travelers, p. 179.

كانت السلطات المملوكية أحيانًا تقوم بالانتقام من القراصنة بطريقة أخرى وهي الاستيلاء على السفن المسيحية في البحر المتوسط فقد حدث أثناء زيارة جسيتل للإسكندرية عام ٨٨٧ هـ /١٤٨٢م أن قام قائد أسطول مملوكي بالاستيلاء على أحد السفن المسيحية في البحر المتوسط وكانت محملة من صقلية بالقمح والبضائع الأخرى وأسر من فيها وبلغ عددهم ٢٣ أسيراً ودخلوا المدينة في احتفال مهيب وخرج والي المدينة لمقابلتهم وهم يغنون وحاملين سيوفهم ودروعهم، أما الأسرى فقد كانوا مكبلين بالسلاسل في رقابهم وساروا بهم في شوارع المدينة ليشاهدهم الناس[٢٧٩].

- **طرق عقاب المجرمين:**

قاسي المجرمون في العصر المملوكي من جراء أنواع العقوبات المختلفة حيث تفنن المماليك في ابتكار الكثير من العقوبات وطريقة تنفيذها عدا السجن والإعدام. ومن تلك العقوبات كانت عقوبة التشهير والتجريس على حمار أو جمل في شوارع المدينة وكان يضرب الجرس على رأس المجرم، والمشاعلية تنادي ليجتمع الناس حوله، وأحيانا تزفه المغاني، وفي نهاية المطاف كان يضرب بالسوط أو يقتل بالسيف [٢٨٠]، وقد شاهد الرحالة الوزان عقاب أحد المجرمين اللصوص فذكر أن أحد أعوان الجلاد يمسك باللص من قدميه والآخر برأسه والثالث يمسك السيف في يده، ويقطع الجسم نصفين ويوضع الجزء العلوي من الجسم فوق كومة من الحجر الكلس الحي حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة [٢٨١]، وتلك العقوبة كانت تعرف بعقوبة التوسيط ومعناها ضرب المجرم بالسيف بقوة ضربة أسفل السرة فينقسم جسمه إلى نصفين.

أما عقوبة التسمير فكانت تعني، دق بعض أعضاء المذنب علي لوح خشبي بواسطة مسامير غليظة على جمل للتشهير به في الشوارع ثم يتم قتله. وقد شاهد الرحالة الإيطالي فريسكو بالدي تنفيذ عقوبة التشهير والتوسيط والتسمير معاً مع

---

(٢٧٩) ذكر برندباخ أن عدد الأسري كان ١٣ مسيحي ؛ Ghistele, Voyage en Egypte , pp. 116-117, Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard, p.68

(٢٨٠) ابن دقماق، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عاشور، أحمد دراج، الرياض، ١٩٨٢، ص ١٩٨ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ١١٧.، أنظر الصورة رقم (١).

(٢٨١) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٦.

مجرم واحد، فذكر أنه أثناء وجوده في دمشق، شاهد أحد القضاة يحكم على أحد القتلة، حيث أمر بوضع القتيل على ظهر جمل وخلفه القاتل بنفس الطريقة وتجولوا بالجمل في شوارع المدينة، حتى وصل الجميع إلى ساحة كبيرة في قلعة دمشق، حيث يسكن حاكم دمشق ووضع القاتل على ركبتيه على الجمل وهو مربوط على لوح خشبي وجعلوا ذراعيه عاليا كأنه معلق على اللوح، ثم جاء السياف ومعه سيف أحدب كبير ضربه عند منتصف الجسد قسمه جزءين أما الذراعين فبقيتا معلقتين، وظل فخذاه على الجمل ووقعت أحشاؤه على الأرض [٢٨٢].

هناك عقوبة أخري وهي الضرب باستخدام العصا أو باستخدام المقرعة، ففي عام ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م أرسل المعز الأشرفي العالي السيفي برقوق للسلطان الأشرف قايتباي عدداً من العربان المفسدين في الشرقية، بعد أن قيد بعضهم وأرسل عدة منهم في الحديد وجهز أربعة رءوس مقطوعة لآدميين، فعرضوا على السلطان، فضرب الأسرى بالمقارع وسجنهم في سجن الجرائم، وأمر بإشهار الرؤوس بالقاهرة [٢٨٣] وليس أدل على ذلك مما شاهده الرحالة بيرو طافور في القاهرة، حيث رأى بعض المماليك يطرحون أحد المجرمين أرضا وأخذوا في جلده وضربوه بالعصا ٢٠٠ ضربه على بطنه وكتفيه [٢٨٤].

كذلك تعرض المجرمون لعقوبة السلخ وهم أحياء ويحشى جلدهم بالنخالة ثم يخاط، بحيث يكون له مظهر رجل عادي، ويوضع على جمل ويطاف به في شوارع المدينة وينادي المشاعلية بالجرم الذي اقترفه [٢٨٥]، وحدث هذا بالفعل مع أحد القتلة المحترفين من العربان، فقد شاهد الرحالة ميشولم اليهودي كيفية عقاب أحد العربان الذي قام بسلب ونهب القوافل وقتل المسافرين، فحكم عليه بسلخ جلده واستطاع ابنه الهرب ومعه ٥٠٠ رجل بخيولهم إلى الصحراء وقرر الابن الانتقام لأبيه بمهاجمة القوافل وسرقتها [٢٨٦].

([282]) Frescobaldi A Visit to the Holy Places, p.85.

([٢٨٣]) الصيرفي، إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، الهيئة العامة، ٢٠٠٢ م، ص ١١٩.

([٢٨٤]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٩.

([٢٨٥]) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٦.

([286]) Adler, Jewish Travelers p. 176.

أما من يسجن وعليه ديون لأحد وعجز عن السداد، فإن قائد السجن كان يسمح له بالخروج من السجن بالنهار مكبلًا بالقيود للعمل في خدمة الناس، أو لطلب الصدقة، ثم يسلم الصدقات للسجان الذي لا يترك له إلا ما يكفيه ليحيا حياة بائسة [٢٨٧]، وقد رأي فون هارف بعض اللصوص المجرمين مقيدين بالسلاسل والقيود الحديدية أيضًا وفرض على كل سجين أن يدفع من ٢ إلى ٣ دوكة ذهبية يومياً وذلك عن طريق خروجهم للعمل طول النهار حتى المساء و كانوا يتعرضون للضرب والإهانة والتعذيب في حالة عدم الوفاء بذلك، وقيل إنه كان في مدينة القاهرة وحدها حوالي ١٠.٠٠٠ لص مكبلين بالقيود[٢٨٨].

أما الأسرى المسيحيين الذين تم سجنهم فكانوا يحاولون فداء أنفسهم بالأموال، كما ذكر برندباخ الذي شاهد في القاهرة ثلاثة من الأسرى المسيحيين وهم شبه عراه مكبلين بالسلاسل الحديدية في شوارع القاهرة يطلبون الصدقة وقد اعتادت السلطات الحاكمة إرسالهم إلى الشوارع والمنازل للتسول ثلاث مرات أسبوعيًّا وتراقبهم حراسة قوية، وكل ما يحصلون عليه يُنفق في إطعامهم، أو في محاولة لتحريرهم[٢٨٩]، كما قرر على المسجون أن يدفع رسوما معينة قدرت بمائة درهم على حد قول ابن تغري بردي[٢٩٠] وحددها المقريزي بستة دراهم فقط سوى بعض الزيادات الأخرى[٢٩١] حتى أبطله الناصر محمد عام ٧١٥ هـ -١٣١٥م. ثم عاد مرة أخرى وأصدر السلطان قايتباي قرارا بمنع حصول السجان وزوجته على أموال من المسجونين [٢٩٢]، ومما يؤكد ذلك ما ذكره الرحالة الراهب فيلكس فابرى الذي كان في القاهرة في نفس العام وقابل مجموعة من المساجين في شوارع القاهرة ويقودهم سجان يحمل في يده سيفاً وهراوة واعتقد فابرى بأنهم أسرى مسيحيون لأنهم يشحذون باللغة الإيطالية وهم أيضاً

([٢٨٧]) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ٣٠٤ ؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٩٧.

([288]) Harff , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , p. 124.

([289]) Larrivaz , Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 50.

([٢٩٠]) ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٤٦.

([٢٩١]) المقريزي، السلوك، ج٢ق١، ص ١٥١.

([٢٩٢]) الصيرفي، إنباء الهصر، ص ٣٢١.

مضطرون لسرقة البضائع والطعام من الدكاكين لإطعام أنفسهم أو يُجبرون على دفع ثمنها [٢٩٣].

وقد بالغ المماليك في قسوتهم عند عقاب المجرمين لدرجة عقاب الأبرياء ودليلنا على ذلك ما ذكره بيرو طافور، ولكننا لا نعلم مدى صحة ما شاهده عندما كان في القاهرة، حيث جاء أمامه ثلاثة من الرجال محكوم عليهم بالقتل وسأل عما اقترفوه ليستحقوا القتل فأخبره المترجم بأن اللصوص قد سرقوا في الليلة الماضية أحد الصيارفة، ولما كان هؤلاء جيرانه ولم يمسكوا اللصوص ولم يهتموا برعاية بضائع جارهم، فيجب محاسبتهم والحكم عليهم بالموت، وهنا اندهش الرحالة واستنكر ذلك فأجابه المترجم بقوله: إننا شعب كبير العدد جداً فإن لم توقع العقاب على كل من الجاني نفسه والنظارة لم يتأت لنا العيش ونحن لا نقيم العدالة فحسب بل نجد من الضروري أن ننفذها بطريقة قاسية فظة[٢٩٤].

- **مراسم استقبال السفراء الأجانب:**

نظمت الدولة المملوكية مراسم لاستقبال السفراء والوافدين الأجانب على أسس قوية وصارمة، وكانت تراعى فيها الدقة والنظام، ويرجع ذلك إلى اتساع الدولة المملوكية، وبالتالي توسعت في علاقاتها مع الدول الأخرى، فكان من الطبيعي أن ترسل تلك الدول سفراء لها إلى الدولة المملوكية لأغراض سياسية، اقتصادية، اجتماعية. وتعتبر كتب الرحالة الأوربيين الذين زاروا البلاط السلطاني زمن السلاطين مصادر هامة، إذ إنها تشرح وتصف بدقة ما لمسوه وما شاهدوه بالعين عن مراسم الاستقبال والاحتفالات بالسفراء لأنهم قد شاركوا في تلك المراسم، وانقسمت تلك المراسيم إلى، الإذن بدخول السفراء إلى الميناء أو علي حدود المدن، استقبال

([293]) Fabri ,(F.) , Le Voyage en Egypte 1483, trad. Du Latin Presente et annote par J. Masson , Le Caire , 1975 , p.441.

([٢٩٤]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٩٦-٩٧.

السفير في المدينة من قبل شخصية هامة مثل المهمندار [٢٩٥] أو والي المدينة أو الترجمان، إعداد مكان مناسب لإقامة السفير، الإذن لمقابلة السلطان، آداب مقابلة السلطان، مظاهر استضافة الرسل ثم توديعهم.

كان هؤلاء السفراء يحضرون إلى أطراف المملكة عن طريق الشام أو الإسكندرية أو دمياط، و كان يجب قبل وصول السفير أن يرسل رسوله إلى نائب القنصل في الإسكندرية يخبره عن قدومه حتى يقوم هو بدوره بإبلاغ السلطات المملوكية بذلك[٢٩٦]، وكان يقابل السفير في الميناء أحد كبار المماليك، وفقاً لمكانة ذلك السفير فعلى سبيل المثال قابل والي دمياط السفير القبرصي بيرو طافور عام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م في دمياط، وعند ميناء بولاق قابله الترجمان، بعد أن أبلغه بالوصول، واختار له مكاناً للإقامة فيه[٢٩٧].

أما فريسكو بالدي وزملاؤه فقد استقبلهم الوالي في مدينة الإسكندرية في قصره ولم يذهب لاستقبالهم في الميناء، بل إنهم ذهبوا إليه في قصره بناء على استدعاء لهم من قبل سلطات الوالي، ووصف هنا مراحل الاستقبال وكيفية المقابلة ذاتها حيث دخلوا بوابة ضخمة ومعهم الترجمان إلى فناء واسع وقادهم أحد الحراس إلى باب آخر في نهاية الفناء حيث وجد الكثير من الحاشية والأمراء ثم صعد سلالم كبيرة وفي أعلى السلم باب يؤدي إلى صالة كبيرة وفى نهايتها الوالي يجلس على كرسي وحوله مماليكه[٢٩٨].

أما تينو الذي زار مصر عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م فقد استقبله والي الإسكندرية وترجمانه وبعض المماليك عند الوصول إلى المدينة وعند ميناء بولاق استقبله أمير مملوكي موفد من السلطان وهو المهمندار ومعه عدد من المماليك ومعهم خيول وحمير وأقام تينو في فندق القطالونيين بالإسكندرية ثم في منزل قنصل قطالونيا[٢٩٩].

([٢٩٥]) المهمندار: انظر، ص ٨٣.

([296]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud p.180 .

([٢٩٧]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٤.

([298]) Frescobaldi, A Visit to the Holy Places , p. 40.

([299]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp.21-22 , 35.

كما انتقل السفير دومنيكو تريفيزاني من الإسكندرية بحرا إلى خليج أبو قير، حيث يبعد ١٨ ميلًا شرقي الإسكندرية لقضاء بضعة أيام لحين وصول ترخيص المرور إلى السفير، وعندما جاءت رسالة من نائب الإسكندرية بالترحيب به عادت المركب إلى الإسكندرية في يوم ٢٧ صفر ٨١٩ هـ / ١٦ إبريل عام ١٥١٢م، مساءً حيث أمضى ليلته على متن السفينة، وفي صباح يوم ٩ ربيع الأول / ٢٧ ابريل، نزل إلى البر حيث استقبله نائب الإسكندرية والدوادار، ومكثت السفارة في الإسكندرية حتى يوم ١٠ ربيع الأول / ٢٨ ابريل، وتوجهت السفارة إلى القاهرة ووصلت بولاق في يوم ١٨ ربيع الأول / ٦ مايو وعندما كان السفير في الإسكندرية، أقام في قصر أعده نائب الإسكندرية للسفارة، وأرسل له هدية عبارة عن عشرة خراف وثلاث سلال من الخبز والخضار والفاكهة وعشرة أزواج من الدجاج [٣٠٠].

كان يجب على السفير أن ينتظر في مقر الضيافة، حتى يرسل السلطان رسالة إلى الوالي يأذن له برحيل السفير ومن معه من الإسكندرية إلى القاهرة، وسمي ذلك ترخيص المرور أو الإذن بالموافقة لمقابلة السلطان بالقاهرة، ولا يمكن للسفير أن يتحرك من مقره بدون ذلك التصريح وتتراوح الفترة الزمنية للحصول على ذلك الإذن عدة أيام وفقًا للظروف العامة ووفقا لمقدار ومكانة السفارة ذاتها، ففي عام ٨٤٠ هـ /١٤٣٦ م عندما جاء بيرو طافور إلى دمياط رسولا وتاجرا، ورغم أنه من أصل أسباني إلا أنه حضر كرسول من ملك قبرص حنا الثاني (١٤٣٢ – ١٤٥٨ م) إلى السلطان برسباي وبعد نزوله دمياط ومقابلة والي المدينة، اخبره طافور برغبته في مقابلة السلطان وطلب من الوالي إعداد قارب ليحمله في النيل إلى القاهرة، فأصدر الوالي تعليماته بإنزاله في بيته حتى تتم إجراءات استئذان السلطان وقد مكث طافور ثمانية أيام في دمياط حتى جاء الإذن بالسفر وأعد له الوالي المركب الذي حمله إلى القاهرة [٣٠١].

أما السفير برانكاشي الفلورنسي الذي زار مصر عام ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م لأغراض اقتصادية، حيث جاء ليطلب لبلاده فلورنسا نفس الحقوق التجارية التي

([300])Ibid, pp , 179 -180.

([٣٠١]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٠-٦٣.

منحها السلطان للجمهوريات الإيطالية الأخرى مثل جنوة والبندقية، وقد وصل الإسكندرية يوم ١١ شوال / ١٩ أغسطس، ثم غادروا الإسكندرية يوم ١٣ شوال / ٢١ أغسطس ووصلوا القاهرة يوم ٢٥ شوال / ٣ سبتمبر، وبذلك يكون قد مكث في الإسكندرية حوالي ١٥ يومًا[٣٠٢] وهكذا كان على السفير أن ينتظر حتى يصل إذن من السلطان.

كما كان علي النواب والمسئولين عند استقبال السفراء الاهتمام بهم، واستضافتهم وإنزالهم في دور للضيافة مناسبة، وتوفير الطعام والشراب لهم، ووسائل المواصلات من مراكب أو دواب أو خيل حتى يحين وقت رحيلهم إلى القاهرة، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة وصول السفير إلى ميناء بولاق ودخول القاهرة والاستعدادات اللازمة لمقابلته، والعمل على راحته ومن معه إلى أن يحين الوقت المناسب لمقابلة السلطان، فما أن يصل خبر دخول السفير ومن معه إلى مشارف القاهرة، حتى يأمر السلطان من يقوم بإنزاله في المكان المخصص لضيافته، فإذا كان الرسول عظيما وذا مكانة يأمر بخروج أكابر الأمراء لاستقباله وإقامته في إحدى قصور الضيافة، فعند ما وصلت سفارة فلورنسا برئاسة السفير برانكاشي عام ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م أقام في منزل احد الأقباط من جزيرة كريت ويدعى غزالة ولكنه لم يدفع أجراً باهظاً مقابل تلك الإقامة [٣٠٣].

أما بيرو طافور الذي وصل عام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م فقد أقام في منزل كبير التراجمة بالقاهرة لمدة ثلاثة أيام وأحسن إقامته وضيافته [٣٠٤] ثم كانت السفارة الفرنسية عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م وكان جان تينو عضوا فيها وقد وصف رحلته إلى القاهرة مع السفارة الفرنسية واهتم بوصف المنزل الذي نزلت فيه السفارة الفرنسية بالقاهرة، إذ قال: إنه يقع على ضفاف النيل ويمتاز بأبهائه الجميلة المبلطة بالرخام والأحجار، وجدرانه المزينة بالزخارف والرسوم ذات الألوان الزاهية، وأبواب المنزل

([302]) Dopp, Le Caire , tome 24 , p. 123.

([303]) Ibid,p. 124.

([٣٠٤]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٤.

مصنوعة من العاج والأبنوس، وبالمنزل أيضا نافورات عديدة باردة وساخنة، كما وصف حدائق المنزل أنها مملوءة بأشجار الفاكهة كالموالح والموز والتفاح [٣٠٥].

وفي نفس الوقت جاءت سفارة بندقية أخرى برئاسة دومينيكو ترايفزاني ومكثت في ميناء بولاق طوال الليل على متن القوارب بناء على نصيحة الترجمان وفي يوم ١٩ ربيع الأول / ٧ مايو صباحًا انتقل السفير من المركب إلى القصر الذي يقيم فيه في موكب فخم، يرافقه المهمندار وعددًا كبيرًا من المماليك السلطانية والأعيان وركب السفير وحاشيته الجياد - وهنا كان يسمح للمماليك وكبار الموظفين والشخصيات الأجنبية الهامة بركوب الخيول فقط – وبالقرب من السفير كان يتواجد أربعة غلمان من خدامه، اثنان يمسكان بلجام الحصان ويرتديان رداءا قرمزيا طويلا، أما الاثنان الآخران فكانا يرتديان ملابس قرمزية أيضا ويمشيان على جانبي السفير،ومعه أيضا عشرون نبيلا من التجار البنادقة المتواجدين في القاهرة والذين كانوا قد أُعتقلوا وسجنوا من قبل، ثم توقف عند قصر عظيم يقع في أجمل أحياء القاهرة، وقد اندهش السفير من جمال وروعة البناء المعماري للقصر، وقدر تكلفته حوالي ١٠٠٠دوكة ذهبية، وكانت الحوائط مغطاة بالرسوم المنحوته والأسقف والحوائط من الرخام المذهب المتلألئ والأعمدة رخامية ومزينة وكانت الأرضية مصنوعة من الفيسفساء أما الأبواب فكانت من الأبنوس والعاج [٣٠٦].وقد ذكر ابن إياس عن تلك السفارة أنها جاءت في يوم الاثنين ٢٣ صفر ٩١٨ هـ / ١٠ مايو ١٥١٢ م، و أن السلطان الغوري (٩٠٦ – ٩٢٢ هـ) (١٥٠١ – ١٥١٦ م) قد أرسل لهم خيولا ليركبوها من بولاق إلي القلعة، وكانوا نحو ٥٠ فردا وعلى رأسهم اثنان من الأعيان، وأقام لهم موكبا في فناء القلعة وزينوا لهم باب الزردخانة، وباب القلعة بالصناديق واللبوس وآلة السلاح وبعد مقابلة السلطان أنزلوا في بيت كاتب السر أبو بكر بن مزهو الذي في بركة الرملي ونزل المهمندار بصحبته [٣٠٧].

([305]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p. 35.

([306]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud,pp.180-181.

([٣٠٧]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٥٥-٢٥٩.

وقد جرت العادة أن يهتم السلطان ومعاونوه برفاهية السفراء فقد قدم المترجم للسفير برانكاشي هدية عبارة عن خروف سمين وقفص ممتلئ بالدجاج ثم قدم له الوالي حوالي ٢٠٠ أوزة و ٥٠ دجاجة و ٢ من قوالب السكر و ٤ علب حلوى. [٣٠٨]، أما بيرو طافور فقد أعطاه السلطان رداءً يقدمه لملك قبرص وهو عبارة عن ثوب أخضر زيتوني وأحمر قد زين بالذهب وفرو السمور وأصدر تعليماته بتوفير مسكن مريح للسفير وتقديم كل ما يلزمه من احتياجات وخدمات.[٣٠٩]، وغداة وصول دومنيكو تريفزاني وصلت إليه هدية من السلطان تحوي ٤٤ قالب من السكر قيمة الواحد أربعة دوكات و ٥ جرار من العسل الهندي، وجرتين من الزبد الطيبة، وأربعين خروفاً وخمسين زوجاً من الدجاج وعشرين أوزة، وكيسين من الأرز[٣١٠]، وعند انتهاء مهمة السفير نهائيا قدم له السلطان هدية عبارة عن رداء من المخمل القرمزي المحلي بفراء النمس الأبيض[٣١١].

يمكننا هنا وصف مراسم الدخول والآداب التي اتبعها السفراء عند مقابلة السلطان من خلال ثلاثة سفراء قابلوا السلطان في سنوات مختلفة، مثل السفير الفلورنسي برانكاشي الذي وصل إلى الديار المصرية في عام ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م، ووصف المراحل التي مر بها إلى أن قابل السلطان وصفًا دقيقًا، ففي يوم ٢٧ شوال / ٥ سبتمبر ذهب هو ومن معه لمقابلة دوادار السلطان وكاتب السر وقدم لهما خطابات من حاكم فلورنسا، وقابلوه بالترحاب والحفاوة، ثم حدد له ميعاداً لمقابلة السلطان، يوم ٢٩ شوال / ٧ سبتمبر صباحا وقبل شروق الشمس بساعة واحدة، وحضر إليه

- الزردخانة: تعني بيت السلاح أو المكان المخصص لحفظ السلاح والعتاد الحربي وقد تطلق علي السلاح نفسه ومن معانيها السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب وهي لفظ فارسي مركب، انظر: سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط٢، دار النهضة المصرية، ١٩٧٦، ص ٤٤٤ ؛ محمد احمد دهمان، معجم المصطلحات، ص ٨٦.

([308]) Dopp, Le Caire , p. 125.

([٣٠٩]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٩.

([310]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp. 181-182.

([311]) Ibid , p. 206 .

المترجمون مع خيولهم ليصحبوهم إلى قصر السلطان، وكان معهم أحد الأشخاص المكلف باستقبال الرسل والسفراء وهو المهمندار ووصلوا إلى باب القلعة، وشاهد فيليبس برانكاشي العديد من المماليك السلطانية والأمراء يصعدون إلى القلعة، ولكن السفير ومن معه ظلوا واقفين أمام الأبواب الأمامية حوالي ساعة، ثم صعدوا إلى القلعة بعد انتظار طويل، عن طريق سلم كبير، ووصلوا إلى بوابة أخرى ومن خلالها إلى فناء واسع، جلسوا فيه لمدة نصف ساعة أخرى وسط عدد كبير من المماليك، ثم أخذ يمر بين ممرات كثيرة وصفوف من المماليك والأمراء المسلحين، حتى وصلوا إلى بوابة ثالثة عليها حراسة، وتم تفتيشهم ذاتياً للتأكد من عدم وجود أسلحة معهم، وفي النهاية وصلوا إلى مقر السلطان أي القاعة التي يجلس في صدرها السلطان برسباي وحوله الأمراء المسلحون، وكان ينتشر في كل مكان وخاصة عند كل عمود في القاعة الموسيقيون يعزفون على آلاتهم الموسيقية المتنوعة مثل آلة القانون والعود، وقد اندهش برانكاشي من ذلك المنظر فقال كانت عيناي مبهورتين وأنا أشاهد كل ذلك، ثم قادنا الأمراء المماليك إلى داخل القاعة ونحن ننحني ونقبل الأرض سبع أو ثماني مرات ووقفت بعيدا عن السلطان بحوالي ٢٥ ذراعاً، وتوقفت الموسيقى أيضا، وقد نصحنا المترجم أن نختصر في الحديث وتكون الكلمة موجزة ومفيدة وخاصة في تلك المقابلة الأولي، ثم غادروا القاعة وهم يحنون ظهورهم ويقبلون الأرض [٣١٢].

ثم قابلوا السلطان مرة أخرى وقدموا له المطالب التي جاءوا من أجلها وهى ثلاثة مطالب: ١ – السماح لبلاده (فلورنسا) بمزاولة التجارة مع بلاد السلطان. ٢ –

([312]) Dopp, Le Caire, tome 24.p. 124-125, Wright, Early travelers, p. 147, Ghistele,Le Voyage en Egypte , p. 23.

- كاتب السر: هو شخص مسئول عن قراءة الكتب الواردة علي السلطان، وكتابة أجوبتها، واخذ خط السلطان عليها وتفسيرها، والجلوس بدار العدل لقراءة الطلبات، والتوقيع عليها، ومشاركة الوزير في بعض الأمور مع التحدث في أمور البريد، ومشاركة الدوادار في أكثر الأمور في السلطنة، وكان رئيس ديوان الإنشاء يتولى ذلك المنصب، وهو أول من يدخل علي السلطان، وآخر من يخرج من عنده، ويعبر عنه أحيانا بكاتب الأمراء أو كاتم السر، انظر: العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص ١٢٠ ؛ أنظر أيضا، محمد دهمان، معجم المصطلحات، ص ١٢٧ -١٢٨.

يعين قنصلاً فلورنسياً في البلاد ويحصل على الامتيازات السابقة. ٣ – مساواة العملة الفلورنسية بالدوكة البندقية، وذكر برانكاشي أنه أضطر إلى تقبيل الخطاب الذي قدمه للسلطان، ثم وضعه على جبهته، وكذلك فعل من كان معه، وقد مكث برانكاشي ومن معه في الديار المصرية واحد وأربعين يومًا[٣١٣].

ذكر بيرو طافور الذي حضر إلى القاهرة في عام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م واستقبله كبير التراجمة، وذهب معه إلى القلعة، وشاهد الأعداد الكبيرة من الأمراء والمماليك السلطانية داخل القلعة وخارجها، وقد مر أيضًا بكثير من الأبواب والساحات الممتلئة بالأمراء والمماليك المسلحين إلى أن وصل إلى ميدان فسيح في وسطه خيمة كبيرة مزينة، أعدت لكي يتناول فيها السلطان غداءه، وأخبره المترجم أن السلطان سيخرج ويمر عليه، ونصحه بأن يقبل الأرض قبل اقترابه من السلطان، وأن يأخذ الرسائل التي يحملها ويمس بها رأسه وفمه للتحية، ثم يرفعها للسلطان، وسأله السلطان عن ملك قبرص وعمه الكاردينال وآخرين،فأجاب عليه طافور، ثم قدم مطالبه وهي: ١ – ألا يرسل السلطان مماليكه لطب الجزية السنوية لأنهم يكلفون الملك نفقات باهظة على أن يرسلها هو في مدى ٤ شهور. ٢ – يأخذ الجزية على شكل (عبك). ٣ – يأذن للتجار القبارصة ببيع الملح في الشام دون دفع ضريبة [٣١٤].

ونستطيع أيضًا أن نلمس مدى دقة وتنظيم تلك المراسيم حتى في أواخر العصر المملوكي، وذلك من خلال سفارة دومينيكو تريفيزاني عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م، الذي قابله السلطان الغوري سبع مرات، ففي المرة الأولي يوم ٢٣ صفر /١٠ مايو، ذهب السفير في الصباح ومعه المهمندار والترجمان، وساروا في موكب حافل وسط المماليك والخيالة، وأخذه إلى السلطان وسط قرع الطبول وعزف المزامير وصوت طلقات المدافع تحية لقدومه، وعندما دخل قاعة السلطان خلع عمامته وانحنى ولمس الأرض بيديه ثم رفعها إلى شفتيه وجبينه دلالة على الاحترام للسلطان، ووقف أمام

)[313] (Dopp , Le Caire , tome 24 , pp. 124-128.

- العبك: لم توفق الباحثة في العثور على معنى الكلمة ولم يذكر الدكتور حسن حبشى تفسيراً.

([٣١٤]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٦٤-٦٨.

السلطان على بعد عشرين خطوة، وقدم له رسالة دوق البندقية ليوناردو لوريدانو Leonardo Loredano (٩٠٧-٩٢٨هـ) (١٥٠١ – ١٥٢١ م)، وكان على السفير تقبيل الرسالة وحملها إلى جبينه ثم إعطاؤها للمهمندار الذي يحملها للسلطان ويقوم بفتحها ويقرؤها المترجم بدقة، ثم رجع السفير أربع خطوات للوراء وأنصرف وكانت المرة الثانية في ٢٥ صفر/ ١٢مايو في الميدان الكبير، حيث تجرى تمارين الفروسية فوقف السفير أمام السلطان ونزع عمامته وحضر معه سكرتيره الخاص وترجمانه والمهمندار وترجمان السلطان، ثم المقابلة الثالثة في ٤ ربيع الأول /٢٠ مايو في الميدان أيضًا وبرفقة السفير قنصل البندقية بالإسكندرية وعشرة من التجار البنادقة، ووقف السفير على بعد أربعة خطوات من السلطان وقدم له مطالب مجلس السناتور وتحدث في المواضيع الهامة، وخلالها حضر قنصل البندقية في دمشق، والذي أُتهم بالخيانة وتبادل الرسائل مع الشاه الصفوي ضد السلطان، فبادر السفير بقوله غن حكومة البندقية لا تعلم ذلك أبداً وقام بوضع السلاسل الحديدية بنفسه في رقبة القنصل وقاده إلى منزله، ثم الرابعة في ١٤ ربيع الأول /١ يونيه وكانت مقابلة سرية تماما، ثم الخامسة في ١٣ ربيع الآخر /٣٠ يونيه في مكان بعيد عن القلعة ودامت المقابلة ساعة ونصف وحصل السفير على مطالبه، والسادسة في ٧ جمادى أول / ٢٥ يوليو داخل القلعة في مكان فسيح وجميل وسط بستان صغير، واستغرقت المقابلة حوالي ساعتين وانصرف السفير بعد أن قبل يد السلطان، أما المقابلة السابعة والأخيرة فقد تمت في ٨ جمادى أول / ٢٦ يوليو في الميدان في حضور قنصل القاهرة والإسكندرية، ووجه السفير بعض عبارات الشكر للسلطان وطلب منه الإذن بالمغادرة.[٣١٥] وهكذا كان الدخول على السلطان في مجلسه يتطلب آداباً يجب اتباعها بكل دقة من السفراء والرسل والأمراء أو أي فرد آخر سواء من البلاد أو من خارجها، ومن خلال ما ذكره الرحالة تبين أنه يجب على الشخص الداخل على السلطان ألا يبدأ بالكلام دون أن يسأله السلطان، ويجب أن يرد على الأسئلة التي يطرحها السلطان، وألا يضحك في مجلسه، وأن يقبل الأرض ويقف بعيداً عن مكان جلوس السلطان، وينحني عند الدخول وعند الخروج، ولا يدير ظهره للسلطان.

([315]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp. 182 -206.

- **أهم الوظائف الإدارية:**

كان الترجمان موظفًا مهمًا في العصر المملوكي، نظرًا لكثرة أعداد الحجاج المسيحيين الذين يفدون من الغرب الأوربي، وكذلك السفراء والتجار الذين كثروا في البلاد وكانوا من جنسيات عديدة، فكان لابد من وجود شخص يقوم بعملية الترجمة للمسافرين، وكان ذلك الترجمان هو أحد المماليك الذين أتقنوا اللغات الأجنبية، ولم تكن مهمته الترجمة فقط، بل أيضًا استقبال الوافدين في الميناء وإثبات شخصية كل منهم في بطاقة خاصة، ثم ترسل نسخة منها إلي كبير التراجمة في القاهرة لعرضها علي السلطان [٣١٦]، ويقوم كذلك بحماية المسافرين في الطريق من خطر العربان الذين يسلبون كل من يمر في الصحراء وبدون حمايته لا يستطيعون السفر[٣١٧]، كما كان يقوم بتوفير الإقامة المناسبة لهم وتقديم التسهيلات للتحرك والتجول بحرية وأمان، وكان له مساعدون يساعدونه في خدمة الحجاج [٣١٨]، بالإضافة إلي دوره في المعاملات بين الأجانب والسكان الوطنيين حيث أعتاد الرحالة علي الاعتماد عليهم في التنقل من مكان إلي آخر مقابل مبلغ من المال [٣١٩]، ومن مهامه أيضًا أن يقوم بتسجيل أسماء الرحالة وأعمارهم والغرض من الزيارة وأوصافهم عند دخول الكنائس والأديرة ثم إرسالها إلي القاهرة وذلك بهدف حمايتهم، في حين رأي لابروكيير أن ذلك كان بغرض الخوف من الخيانة والجاسوسية ولمنع تهربهم من دفع الرسوم المفروضة عليهم [٣٢٠]، كذلك كان المترجم هو المسئول عن الحصول علي التصريح بالسفر إلي

([316]) Casola , Pilgrimage to Jerusalem , pp. 221-228.

([317]) Adler, Jewish Travelers , p. 220 , Wright , Early Travelers , p. 288 , Larrivaz, Le Saints Peregrinations de Bernard , p. 39

([318]) Larrivaz , Ibid , p. xv , Fabri , The Wanderning , vol 1part 1. p.103.

([319]) Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff, pp. 291-292 , Frescobaldi, The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p. 51,Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , p.22.

([320]) (right ,Early Travellers, p. 228.

دير سانت كاترين أو إلي الأراضي المقدسة [٣٢١]، وكذلك وظيفة المهمندار: وهو الشخص الذي كان مسئولًا عن استقبال الرسل والسفراء ثم يقوم بالتعرف علي سبب مجيئهم وقصدهم من السفارة ويقوم بإبلاغ كاتب السر بذلك، ثم كان يتولى مهمة إحضارهم بين يدي السلطان للاطلاع علي رسالتهم وغرضهم [٣٢٢].

نخلص مما سبق أن المماليك كانوا عبيد مشتروات ومثلوا قوة حقيقية يعتمد عليها منذ نهاية العصر الأيوبى حيث اعتاد سلاطين بنى أيوب شراء المماليك صغار السن وتدريبهم على فنون القتال والعسكرية فأصبحوا قوة حربية متميزة أظهرت نفسها في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب حينما استطاعوا هزيمة الحملة الصليبية السابعة وأسر الملك لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة ثم قدرتهم على تولى السلطة في مصر والشام لأكثر من قرنين ونصف القرن ولكنهم أول من أسسوا مبدأ الحكم لمن غلب ولم يسمحوا بتوارث الحكم كما فعل السلاطين الأيوبيون إلا في حالات نادرة، تلك القوة استطاعت تأسيس دولة عظيمة قاومت وحاربت وحمت البلاد من أخطار خارجية، تمثلت في خطر التركمان علي حدود الدولة، والذين اتبعوا سياسة غير محددة، والخطر الآخر كان القراصنة الذين هددوا السواحل المصرية والشامية، وسببوا خسائر فادحة للتجار، واكتفت السلطات المملوكية بتنفيذ مبدأ العقاب الجماعي علي جميع الفئات الأجنبية في البلاد وإغلاق الكنائس والأديرة. ولكن تلك الدولة لم تخل من الصراع والتعصب للجنس والرغبة الملحة في السيطرة علي مقاليد الأمور، ولا عجب في ذلك، فمن الطبيعي أن تحدث مثل تلك الأمور، وخاصة أنهم جميعا من أصل واحد أي أنهم عبيد، وبذلك فكلهم سواسية ومن حق أحدهم الوصول للسلطة، حتى لو تطلب الأمر إراقة الدماء وإتباع أسلوب الدهاء والمكر والخديعة و تخريب وتدمير المدن والأسواق، ومن منطلق ذلك كان عليهم حماية سلطتهم ضد العربان، الذين رأوا أن المماليك مجرد عبيد، فلا يحق لهم الملك، وضد أنفسهم، ولذلك كان السلطان أو الأمير يكثر من جنوده ليتمكن من حماية نفسه وعرشه.

([321]) Ghistele, Le Voyage en Egypte , p, 17.

([322]) Schefer , Le Voyage de Jean Thenaud , pp. 180 , 190-191.

أما المماليك أنفسهم فكانوا في عزلة تامة عن الشعب ولم يتأثروا به، بل مارسوا العنف والقسوة عليهم وصار المماليك ينهبون ويستولون علي كل شيء بدون رقابة خاصة في نهاية العصر المملوكى، وابتكروا طرق جديدة لعقاب المجرمين والمعتدين لبث الرعب والخوف في نفوس الأبرياء. ورغم كونهم مماليك، إلا أنهم استطاعوا وضع أسس وقواعد ثابتة وراسخة حددت العلاقة بين الدولة المملوكية والدول الأخرى ووضعت نظم إدارية هامة أوضحت عظمة وهيبة المماليك، كما اهتم السلطان المملوكي والأمراء بمظهرهم وتفننوا في ممارسة رياضات مختلفة مثل الفروسية ولعب الكرة والصيد وغيرها وأنشئوا الميادين الخاصة باللعب، كما اهتم الأعيان وكبار رجال الدولة بوسائل الترفية والتسلية. كما نظمت الدولة المملوكية مراسم لاستقبال السفراء والوافدين الأجانب على أسس قوية وصارمة، وكانت تراعى فيها الدقة والنظام، ويرجع ذلك إلى اتساع الدولة المملوكية، وبالتالي توسعت في علاقاتها مع الدول الأخرى، فكان من الطبيعي أن ترسل تلك الدول سفراء لها إلى الدولة المملوكية لأغراض سياسية، اقتصادية، اجتماعية. وتعتبر كتب الرحالة الأوربيين الذين زاروا البلاط السلطاني زمن السلاطين مصادر هامة، إذ إنها تشرح وتصف بدقة ما لمسوه وما شاهدوه بالعين عن مراسم الاستقبال والاحتفالات بالسفراء لأنهم قد شاركوا في تلك المراسم، وانقسمت تلك المراسيم إلى، الإذن بدخول السفراء إلى الميناء أو علي حدود المدن، استقبال السفير في المدينة من قبل شخصية هامة مثل المهمندار والي المدينة أو الترجمان، إعداد مكان مناسب لإقامة السفير، الإذن لمقابلة السلطان، آداب مقابلة السلطان، مظاهر استضافة الرسل ثم توديعهم.